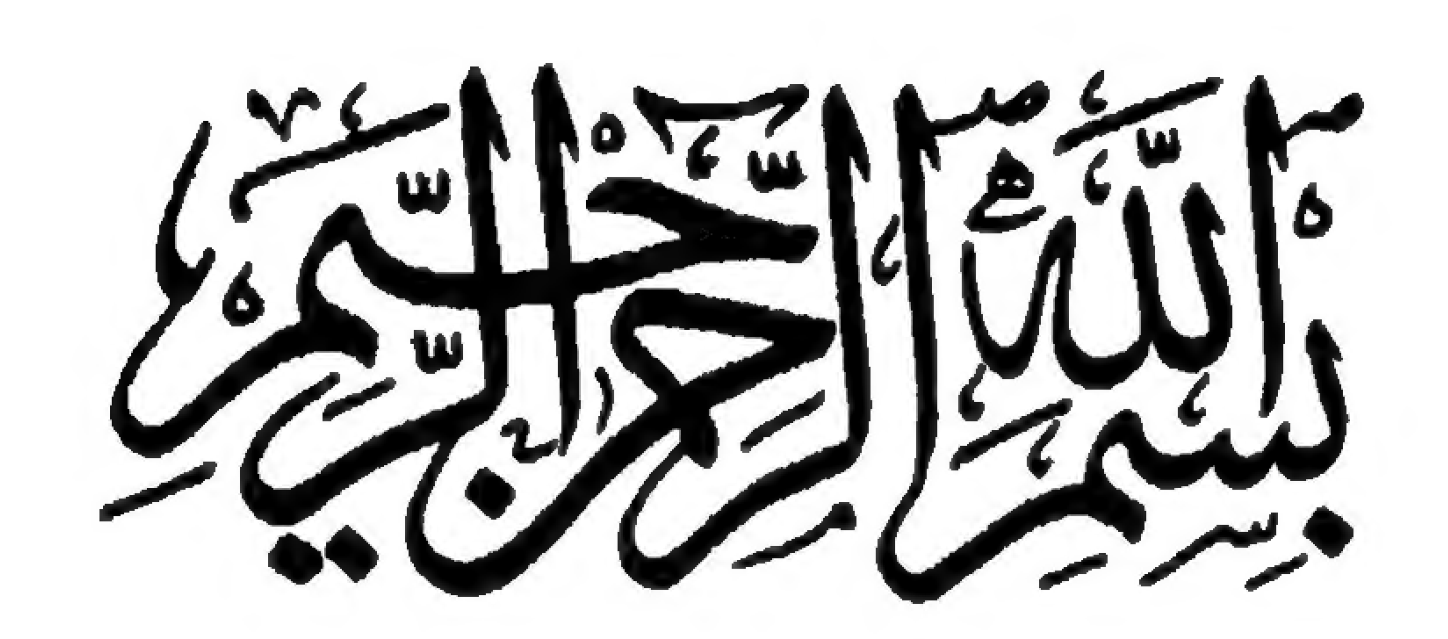

بسم الله الرحمن الرحيم

الزهراء للإعلام العربى
قســـم النشــر

ص.ب ١٠٢ مدينة نصر - القاهرة - تلغرافياً : زاهراتيف - تليفون ٦٠١٩٨٨ - ٢٦١١١٠٦ - تلكس ٩٤٠٢١ رائف يو إن فاكس ٢٦١٨٢٤٠
P .O : 102 Madinat Nasr - Cairo - Cable : Zahratif - Tel : 601988 - 2611106 - Telex : 94021 Raef U .N fax 2618240

بسم الله الرحمن الرحيم

«وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ
وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ»

صدق الله العظيم
فصلت/٣٣

الطبعة الأولى
١٤١٢ هـ ــ ١٩٩١ هـ

الجمع التصويري والتجهيز
بالزهراء للإعلام العربي

د. توفيق الطويل

قصة الاضطهاد الديني في المسيحية والإسلام



الزهراء للإعلام العربي

إهـــداء الكتـــاب

إلى أسرتي : زوجتي إحسان ، وابني د . حسام ، وابنتي منى ، وزوجها مهندس شريف غنيـم ، وابنتهما الطفلة الحبيبة : نهلة ـ مع صفاء النفس ، وحنان المشاعر ...

ت . ط

تمهيد للناشر

هذا الكتاب هو أحد الكتب التي انتجتها قريحة الفقيد الكبير الأستاذ الدكتور توفيق الطويل ، أحد أهم أعلام الفكر المصري الحديث .

والدكتور الطويل من المشيخة الأولى التي درست وتولت تدريس الفلسفة في مصر ، وقد تلقى العلم على يد الأستاذ الأول للفلسفة الإسلامية في مصر الأستاذ الشيخ مصطفى عبد الرازق ، ثم قام بتدريس الفلسفة والأخلاق في كلية الآداب بجامعة القاهرة (فؤاد الأول) ، وانتخب عضوا بمجمع اللغة العربية بالقاهرة .

وتمثل مؤلفات الدكتور توفيق الطويل ركنا هاما في المكتبة الفلسفية العربية المعاصرة ومنها : « أسس الفلسفة » ؛ وهو أحد أهم المؤلفات في الفلسفة العامة . و « فلسفة الأخلاق » : وفيه يتمثل موقف الدكتور الطويل باعتباره فيلسوف الأخلاق في مصر المعاصرة .

ومنها كتاب : « قصة النزاع بين الدين والفلسفة » وكتابه عن « جون ستيوارت مل » ، كما ترجم فصولا من كتاب « تراث الإسلام » في طبعته الأولى ، وكذلك كتاب « الأخلاق » لسد جويك . وأصدر له المجلس الأعلى للفنون والآداب في الكويت كتاب « في تراثنا العربي والإسلامي » .

ويحمل تلامذة الدكتور الطويل له أطيب الذكريات لما كان يمثله بالنسبة لهم من قيمة كبرى كأستاذ عظيم تلقوا على يديه العلم وتجسد فيه النموذج الكامل للأستاذ المثالي . رحمه الله رحمة واسعة .

مقدمة الطبعة الثانية

تكرر في أحاديثنا ما لا نمل تكراره في أن الدين والعلم ـــ أو الفلسفة على وفاق يمتنع معه الخلاف في إقرار الحقيقية ، وإن اختلف منهج البحث في كليهما . فالدين منهجه الوحي الإلهي الصادق في كل حالاته ، ومنهج العلم الملاحظة الحسية والتجربة العلمية ، ومنهج الفلسفة استفتاء العقل والالتزام بمنطقه الذي لا يختلف باختلاف زمان أو مكان ، من هنا استحال أن يكون بين الدين والعلم أو الفلسفة خلاف في غاية البحث آخر المطاف ، وكل ما يقال غير هذا فهو هراء ـــ ومن منطلق الوحي الإلهي قال الله تعالى عن نبيه الكريم إنه لا ينطق عن الهوى ، وإن جاز أن يخطيء في وقائع الحياة الدنيا إذا أفتى برأيه . لهذا قال في مسألة النخيل للفلاح : أنتم أدرى بدنياكم ، فالزارع أدرى بالزراعة من رسول الله ومثل هذا يقال في أهل الحرف ...

ونعقب على هذا تمهيدًا للاضطهادات الدينية في حياة البشر ، إن الإنسان حيوان ناطق[1] فالإنسان في تعريف أرسطو ـــ في تعريف أرسطو الجامع المانع ـــ حيوان ناطق (أي مفكر) وحديثًا أوضح دارون ت 1882 في نظريته عن التطور حقيقة

---

(1) استعنا في هذه المقدمة بما كتبنا ، من قبل في مقدمتنا للنزاع بين الدين والفلسفة وأثبتنا فيها أنه ليس بين الدين والعلم أو الفلسفة نزاع .

حيوانيته بما لا يدع مجالاً لشك ، أصدر كتابه « أصل الأنواع » عام 1859 فأثار ثائرة المعسكرات الدينية في أوربا وأمريكا ، واتهمته بأنه أنزل الله من فوق عرشه ! كما سنعرف بعد ، فعكف على دراسة الإنسان حتى أصدر كتابه « سلالة الإنسان » عام 1871 وفيه انتهى إلى نتيجة روعت هذه المعسكرات ، إذ ثبت له أن الفرق بين الإنسان والحيوان فرق درجة ، وليس فرق نوع ! هو من نوع الحيوان ، ولكنه هيئ ــ عقليًا وجسمانيًا ــ بحيث كان تطوره أسرع من تطور الحيوان وأعظم .. ! .

وفي القرن السابع عشر ظن ديكارت وجون لوك أن الشعور أو العقل هو الذي يسير سلوك الإنسان ، لكن فرويد ت S. Freud 1939 ومدرسة التحليل النفسي من أتباعه ، ذهبوا إلى أن الذي يتحكم في توجيه سلوك الإنسان هو اللاشعور ، بكل محتوياته المكبوتة المنسية لا إراديًا ، من خبرات أليمة منذ الطفولة ، وميول ورغبات وأمانٍ تتعارض مع تعاليم الدين ، وتتنافى مع آداب المجتمع وتقاليده ، وأكثر مكونات اللاشعور يدور حول الغريزة الجنسية ... ونقول نحن تعبيرًا عن رأي فرويد : إن الذي يتحكم في توجيه سلوك الإنسان ، هو أقذر وأحط ما فيه من دوافع .. !! . ولو رآه الناس على حقيقته وقد تكشف بمحتويات لا شعوره ، لكان هذا مثارًا لخجله وقلقه وانزعاجه ... ! ومن ثم يبدو على حقيقته حيوانًا خسيسًا .. ! .

فالجانب الحيواني في طبيعة الإنسان أقدم من العقل ، وأعمق توجيهًا لسلوكه ، وسيطرة على حياته ، ما لم يتعطل الجامح من ميوله الفطرية وعواطفه المكتسبة مؤقتًا ، بزاجر من دين .. برادع من عقل .. بوازع من ضمير ، فإذا ارتفعت هذه الضوابط من حياة الإنسان ، ارتد وحشًا ضاريًا يسير على جثة خصمه ، وينهش لحمه ، وينهل من دمه !! وهذا هو الذي نراه في قصة الاضطهادات التي يحويها هذا الكتاب .

بل إن دور الزواجر في كبح جماح طبيعته الحيوانية قد أنكره بعض الفلاسفة ! يقول توماس هوبز ت Th . Hobbes 1679 إن الإنسان حتى وهو في أعلى مستويات المدنية ، يعيش أسير أنانيته ، ذئبًا لأخيه الإنسان ، لا يتردد ــ متى أتيحت له

الفرصة ــ في أن يعتدي على الضعيف ويغتصب ملكه ، فإن أعوزته القوة التمس الحيلة والدهاء حتى يبلغ مأربه ، كان هذا حاله همجيًا ، ولم يزل هذا حاله متمدينًا ، فإن المدنية لم تفعل شيئًا أكثر من أنها حجبت طبيعته العدوانية بستار من الأدب ، وأحلت التميمة أو القصاص ــ في ظل القانون ــ مكان استخدام العنف ، ومعالجة الأمور بالفظاظة[1] !.

إن استقراء حياة الإنسان عبر تاريخه الطويل يشهد بأن الحقد الأسود دفين في نفسه ، والشغف بالانتقام كامن في صدره يجري مع الدم في شرايينه ، ومصداق ما نقول تشهد به الاضطهادات الدامية الآثمة التي احتوتها . فصول هذا الكتاب ، وراح ضحيتها شهداء الحق ممن كانت جريمتهم خلافًا في الرأي مع معسكرات دينية متزمتة ، أتيح لها سلطان دنيوي مكنها من أن تتكل بخصومها ، وتمزق بالسياط أجسامهم ، أو تلقي بهم فريسة لوحوش ضارية ، أو تحرقهم بالنار وهم أحياء ، وتذر في الهواء ما تخلف عن جثثهم من رماد[2] .. !! إن مرتكبي هذه الفظائع ليسوا

---

(1) يقول في التعبير عن هذا لمكرة ــ مبالغًا ــ إن الإنسان المتمدين إذا هم برحلة سلح نفسه ، وإذا أسلم للنوم عينيه أغلق أبوابه ، وحتى إذا استقر في بيته أغلق دواليبه ، وهو يفعل هذا كله مع علمه بأن هناك قوانين وضعت لحمايته ، وحراسًا مزودين بالسلاح ليثأروا من كل من يريد إيذاءه .... إلخ .

(2) إذا كانت هذه الفظائع قد تمثلت في استشهاد الفلاسفة والعلماء في ماضي الأيام ، فإن فظائع الإنسان في المجال السياسي والاجتماعي في عالمنا اليوم ليست أقل بشاعة ، وما علينا لنتبين هذا إلا أن ننظر إلى خريطة العالم كما تشير إليه اليوم أجهزة الإعلام في شتى صورها .

تهجم فيتنام على كمبوديا ، فتزحف الصين على فيتنام ، وتعتدي اليمن الجنوبية (الماركسية) على قرينتها اليمن الشمالية ... وتنزانيا على أوغندا ... وأثيوبيا على الصومال ... وهذه الحرب الأهلية في تشاد ، وفي نيكاراجوا وفي بيروت ، وفي إيرلندا (الكاثوليكية والبروتستانتية) وفي إيران بين الشيعة والأكراد السنيين ... وهذه التفرقة العنصرية التي تتمثل في جنوبي أفريقيا وتبدو في ظلم البيض لأغلبية السود في روديسيا ، وبغي الإسرائيليين على الفلسطينيين وهم أهل الأرض ... وهكذا تنذر أحداث عالمنا في أيامنا الحاضرة بحرب عالمية ثالثة ، تتهدد البشرية بويلات الأسلحة الذرية التي تكفي قنبلة واحدة منها لتدمير دولة ..!! وهذا إلى جانب موجات العنف التي تجتاح عالمنا اليوم ، ويروح ضحيتها الأبرياء العزل من كل سلاح . خطف الطيارات بركابها ، ... واغتيال أمثال داعية السلام بين زنوج أمريكا « مارتن لوثر كنج ــ وقبله إمام الدعوة إلى السلام ومقاومة العدوان بالحسنى والكف عن الأذى (الأهمسا) المهاتما غاندي ... ! وألدو موزو و36 غيره في إيطاليا وحدها .. وعمليات القتل في إيران وأفغانستان .. وغيرهم كثيرون هم الذين راحوا ضحية الحقد الأسود الكامن

حيوانات من ذوات الأربع ، بل إن مرتكبيها حيوانات من ذوات الاثنتين تنكر كل منها في زي إنسان[1] ... !! .

وأغرب ما في هذا الصراع الذي نشب بين المعسكرات الدينية المتزمتة ومن خالفوها الرأي من أهل الفلسفة ، أن مرتكبيها في المسيحية والإسلام كانوا يتسترون وراء الدين الذي كان من أخص خصائصه دعوته إلى الحب والتسامح ، وتنفيره من الحقد والانتقام ! .

حقيقة إن بعض الباحثين من أمثال دريبر J . W . Draper وبيوري J . B . Bury في تأريخهما لموقف الكتب المقدسة من اضطهاد المفكرين ، وبعض المستشرقين من أمثال تنمان G . Th . Tennemean في نظرته إلى موقف الإسلام من ذلك الاضطهاد ، زعم هؤلاء أن المتزمتين من رجال الدين استندوا إلى نصوص من الأناجيل وآيات من القرآن في اتخاذ الاضطهاد شريعة تحمي الدين نفسه ، وقد ناقشنا هذا الرأي في أكثر من موضع في هذا الكتاب ، فلا حاجة بنا إلى تكرار ما سنقوله ، فإن في الديانتين آيات صريحة تغري بالسماحة وتدعو إلى المحبة ، وتنفر من الحقد وتستهجن الكراهية والانتقام .

= في الوحش المسمى بالإنسان ... أمريكا — في قمة حضارة العالم — تلقي على فيتنام — بأمر من جونسون — أطنانًا من القنابل — لا ينجو منها حتى المرضى في مستشفياتهم — رغبة في تحطيم الروح المعنوية للمناضلين من أبناء فيتنام ..! .

نحن في غابة كبيرة تستوعب الكرة الأرضية كلها ..!! نحن نعيش في رحابها ، في صراع وقتال ، مع إخوتنا وأبناء عمومتنا من الحيوانات والناس والوحوش الضارية ..!! لا ، إن مثل هذا وغيره لا يحدث في مملكة الحيوان ! يفترس الحيوان حيوانًا ، ولكن الحيوانات لا تستخدم آلات جهنمية للتدمير ولا تتكتل في تحالفات لتدمر شعبًا (أو قطيعًا) وتطمس ذكره وتمحو من المصور الجغرافي وطنه ، كما يحدث هذا في عالم هذا الذي يسمونه إنسانًا ... ! وحسبنا أن نشير الآن إلى أن الصهاينة يدفنون الفلسطينيين أحياء ..!! .

(1) إن الجندي في ميدان القتال يتهيب قتل عدوه ويجفل في أول مرة ، فإذا تكررت التجربة زال تهيبه ، ثم بدأ يشعر بلذة في ممارسة القتل ، والتمثيل بجثة القتيل !! كان « هانيبال » يستخدم في هجومه على روما جنودًا مرتزقة ، ظل يجري عليهم أرزاقهم حتى حين توقف القتال في هدنة ، لكن الجنود الذين ألفوا الحرب تمردوا عليه وطالبوه باستئناف القتال ، حبًا في القتال ، وتشوقًا إلى إهراق الدم ...! وليس طلبًا للمال ..! انظر كتابنا : قصة الكفاح بين روما وقرطاجنة .

جاء في سورة البقرة ﴿ **لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي ...** ﴾ وفي سورة الكهف : ﴿ **وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ...** ﴾ وفي سورة يونس يخاطب الله نبيه المصطفى بقوله : ﴿ **أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين** ﴾ .

وخليفة المسلمين لا يحتكر تأويل الكتاب والسنة حتى يكون مصدر الحقائق المعتمدة ، ولا يعد معصومًا من الخطأ ، فإن زل وجب تقويمه ، ففي الحديث النبوي ــ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ــ وجرد الإسلام رجال الدين من كل سلطة دنيوية ، يخاطب الله نبيه المصطفى بقوله : ﴿ فذكر إنما أنت مذكر * لست عليهم بمسيطر ﴾ وبهذا وبغيره سبق الإسلام الثورة الفرنسية ، بل الإعلان العالمي لحقوق الإنسان في ميثاق هيئة الأمم المتحدة في إقرار الحرية الفردية .... إلى آخر ما قلناه في فصل : موقف الإسلام وفقهائه من أهل الفكر الفلسفي .

وقريب من هذا يقال في المسيحية ، حسبها براءة من تبعات الاضطهاد الآثم خطبة المسيح لحوارييه على الجبل ، وفيها يقول مبشرًا بالجديد في الدين الذي يدعو إليه : « سمعتم أنه قيل عين بعين ، وسن بسن (يقصد ما ورد في التوراة) وأما أنا فأقول لكم : لا تقاوموا الشر ، بل من لطمك على خدك الأيسر فحول له الآخر أيضًا ، ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك ، فاترك له الرداء أيضًا ، ومن سخرك ميلاً واحدًا فاذهب معه اثنين ، من سألك فأعطه ، ومن أراد أن يعترض سبيلك فلا ترده ، سمعتم أنه قيل تحب قريبك وتبغض عدوك ، وأما أنا فأقول لكم : أحبوا أعداءكم ، باركوا لاعنيكم ، أحسنوا إلى مبغضيكم ، صلوا لأجل الذين يسيئون إليكم لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السموات ، فإنه يشرق شمسه على الأشرار والصالحين ، ويمطر على الأبرار والظالمين ، لأنه إن أحببتم الذي يحبكم فأي أجر لكم ، أليس العشارون يفعلون ذلك ! وإن سلمتم على إخوتكم فقط فأي فضل تصنعون ؟ أليس العشارون أيضًا هكذا ؟ فكونوا أنتم كاملين : كما أن أباكم في السموات هو كامل »[1] .

---

(1) إنجيل متى في العهد الجديد ــ الأصحاح الخامس وما بعده .

هذه هي خطبة المسيح لحوارييه على الجبل ، يقول مؤرخو المسيحية إنها ارتفعت بالمسيحية إلى أعلى قمم شاهقة من الروحية ، فأين هذه المبادئ السمحاء من جرائم الاضطهادات الآثمة التي لطخت تاريخ المسيحية باسم المسيحية .. ؟! .

إنما تقع تبعة الاضطهادات الآثمة في الديانتين على عاتق المتزمتين من رجال الدين ، علا نفوسهم صدأ الجهل ، وأفسد تفكيرهم ضيق الأفق ، فاستحالت سماحة الدين في نفوسهم إلى شغف بالاضطهاد الملطخ بالدم نابًا ومخلبًا ، فكان التعصب المقيت والتزمت البغيض الذي يبعد صاحبه عن نور الإيمان الصحيح ، ويرده إلى أحط مراتب البهيمية ، ويهوي به إلى حضيض الوحشية ، فتتحول فيه السماحة والمحبة التي دعت إليها الأديان إلى إحن تحك في صدره ، وأحقاد تضطرم في باطن نفسه ، وظمأ لا يرويه إلا إهراق الدم ، أو إزهاق النفس بأخس الطرق وأبشعها .

لكن استقراء تاريخ الصراع بين العقل والإيمان يقول : إنه لا يعرف صراعًا قام بينهما وأدى إلى استعباد العقل وجندلة المتمسكين به ، إلا إذا اجتمع شرطان يدور اجتماعهما مع الاضطهاد وجودًا وعدمًا ..

أولهما : وجود عقل قوي جريء يقوى على اقتحام « منطقة الحرام » وارتياد آفاقها ، والانتهاء إلى كشف مجهول أو إنكار مألوف ، غير مبال بالسلطات التي تتهدده ، **وثانيهما** : أن تتهيأ للمتزمتين من رجال الدين سلطة دنيوية تمكنهم من اضطهاد من يخالفهم الرأي ، فإن أعوزتهم السلطة قنعوا بالغيبة وانتقموا بالنميمة !! أو لاذوا بالعقل وجاروا خصومهم في الاعتصام بشريعته ، فلا يلبث منطقه حتى يثير الشقاق في معسكرهم ويفت في عضد دعوتهم ...! وبغير اجتماع هذين العاملين لا يقوم بين العقل والإيمان صراع ، تلك سنة يشهد بها تاريخ الفكر منذ أقدم العصور :

أما في المسيحية في العصور الوسطى فقد تهيأ للكنيسة سلطان واسع النطاق ممدود الرحاب ، روحيًا بحكم وظيفتها ، وسياسيًا بسبب ضعف الملوك والأباطرة ، فسيطرت على التعليم في المدارس ، واحتكرت لنفسها تأويل الكتاب المقدس ،

وأدانت كل من جاهر بحقيقة لم تقرها الكنيسة من قبل ، وسلم بسياستها في اضطهاد مخالفيها الملوك والأباطرة ، ومن لم يذعن لها تحيق به اللعنة ، وكانت الهرطقة أعظم خطيئة عقابها نار جهنم ، إلى جانب ما تنزله به السلطات الدينية من عذاب . وتمكن نظام الاضطهاد ، منذ أوائل القرن الخامس على يد القديس أوغسطين ت 430 أوسع آباء الكنيسة نفوذًا ، فمضت الكنيسة تعمل جاهدة لقمع الهرطقة وجندلة أهلها ، وكان لهذا أثره البالغ في عرقلة النظر العقلي ووقف التقدم العلمي .

وبعد ممات هذا القديس ببضع عشرات من السنين ، فرضت الرقابة على المطبوعات ، وصدرت أول قائمة بالكتب التي حرمت قراءتها على المؤمنين . وما انتصف القرن الحادي عشر حتى ارتفعت المطالبة باستخدام السلاح الدنيوي في معاقبة الملحدين ، ونفيهم ومصادرة أملاكهم ، وهدم بيوتهم ، وحرمانهم من حقوقهم المدنية ... ! .

ثم أنشئت محاكم التفتيش لتتولى مطاردة المارقين وتعذيبهم إلى حد إحراقهم وهم أحياء !! وارتكبت كل هذه الفظائع باسم دين أخص ما يميزه دعوته إلى المحبة ، « أحبو أعداءكم ، باركوا لاعنيكم ، أحسنوا إلى مبغضيكم ... » إلى آخر ما فصلناه من قبل وعدنا إليه في الفصل الذي عقدناه على « موقف الأكليروس من شريعة العقل »

أما في الإسلام فإن رجال الدين قد جردوا من كل سلطة دنيوية . يقول تعالى مخاطبًا نبيه المصطفى ﴿ **فذكر إنما أنت مذكر * لست عليهم بمسيطر** ﴾ فلم يكن من الميسور أن يقع على أيديهم اضطهاد لمخالفيهم في الرأي ، ولهذا ارتدت الاضطهادات في الإسلام إلى أسباب شخصية ، أو دوافع سياسية ، أو حين دس الحكام الدنيويون أنوفهم في مسائل علمية أو دينية ، وفرضوا رأيهم على مخالفيهم بحد السيف ... ! وما نسوق إلا شاهدًا واحدًا على ذلك ، هو المحنة في الإسلام ، محنة أهل السنة وفي مقدمتهم الإمام أحمد بن حنبل على يد المأمون والمعتصم والواثق ، في مشكلة خلق القرآن .

تعرض أهل السنة للعذاب ، بسبب إصرارهم على القول بأن القرآن قديم قدم الله ، ومرد المحنة التي عاشوها أربعة عشر شهرًا إلى أن المأمون قد اقتنع برأي المعتزلة في أن القرآن مخلوق وليس قديمًا ، وأن القول بقدمه شبه شرك ، والقائل بالشرك يجب رده ، فإن عاند وجب قتله .. ! واعتقد المأمون أنه مسئول أمام الله عن عقيدة رعاياه ، فتدخلت الدولة بسلطانها وهيلمانها وولاتها وجنودها ، في حمل الفقهاء على الاعتقاد بأن القرآن مخلوق !![1] ولولا تدخل الدولة لظل الجدال بين المعتزلة وأهل السنة مجرد مقارعة حجة بحجة ، وبرهان ببرهان ، وما كان يمكن أن يتحول الجدل إلى تعذيب وتنكيل بأحد ، طالما كان الفريقان المختصمان مجردين من كل سلطة دنيوية ، تمكن أحدهما من اضطهاد خصمه ، وجندلة أتباعه ... إلى آخر ما قلناه في أسباب المحنة ومثيلاتها ؛ من قتل الحلاج والسهروردي وغيرهما .

* * *

ومع هذا الذي رويناه عن الاضطهادات التي تعرض لها الفلاسفة في تاريخ المسيحية والإسلام ، نقول إن فيهما — عبر تاريخهما الطويل — رجال دين يحسنون التفكير ويسايرون التطور ، ويسابقون الزمن ، وينتصرون للعقل ، ويحاربون الجمود والجهل والتعصب ، وإلى جانب هؤلاء متزمتون يجمدون والدنيا حولهم في حركة دائمة ونشاط متصل ، فيطمعون في أن يوقفوا الركب ويعرقلوا حركته لأنهم لا يطيقون في الرأي جدة ولا خلافًا ، ولا يحتملون من مفكر أن يخرج على مألوف ، أو يصيب عند الناس شهرة ، أو عند الحكام عطفًا ورعاية ، فإن حدث شيء من

---

(1) كتب المأمون أول كتاب إلى إسحق بن إبراهيم يطلب فيه أن يمتحن الفقهاء ليعرف من منهم ينكر خلق القرآن ليعذبه ، وكان من سخرية القدر أن يقول المأمون في كتابه عن الإمام أحمد بن حنبل وصحبه : إنهم لا بد أن يكونوا من حشو الرعية وسفلة القوم ... وأهل جهالة بالله وعمى عنه ، وضلالة عن حقيقة دينه ....! هكذا يصف المأمون الإمام ابن حنبل أعلم أهل الأرض بالإسلام في عصره .... ! .

هذا فهم المناعون للخير ، المشاءون بالسوء ؛ ولكن برغم ما تهيأ للهيئات الدينية المتزمتة من أسباب النجاح المؤقت في صراعها الدامي وعدوانها الآثم ، قدر لجهودها الإخفاق المرير في نهاية المطاف ، ومضى موكب التقدم في طريقه قدمًا وقد استبد بهواه نداء العقل ، وتخلف الجامدون وفاتهم الركب ، فعسكروا حيث كانوا ، وقد قل عديدهم واضمحل نفوذهم ، وتضاءلت آمالهم ، وباتوا يسرحون الطرف في مواكب الفكر الحر المتجدد الظافر ، فيرتد خاسئًا وهو حسير ، ﴿ **فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض** ﴾ .

* * *

نظرية مركزية الإنسان ، ومكان الإنسان من الوجود :

استطاع الإنسان بجبروته أن يقهر الطبيعة ، وأن يسيطر على ظواهرها ، ويستغل مواردها لمصلحته ، وأن يهاجم أقوى الوحوش الضارية فتكًا ، فيصرع الآساد والفيلة والنمور والدببة ... ، أو يحبسها في أقفاص ويضعها في حدائق الحيوان ليتسلى برؤيتها الناس !! ولم يقنع بهذا فأخذ يغزو الفضاء بأجهزة جهنمية من مخترعاته ، ويدور حول الأرض بصواريخه ومركباته الفضائية بسرعة فاقت سرعة الصوت ! ويتحكم في سيرها وسرعتها ... وهو جالس في مختبره على سطح الأرض ... ! ولكن ما أضعف هذا المارد الجبار ، وأجدره بالشفقة والرحمة ! فإنه في عنفوان جبروته قد تنقله إلى قبره لسعة من بعوضة ، أو جرثومة تحملها إليه ذبابة ... !! من هنا حار الفلاسفة في أمر هذا الكائن الذي يبدو حينًا ماردًا جبارًا ، وحينًا ضعيفًا متهاويًا متداعيًا ..! فكان الخلاف بين تصور القدماء وتصور المحدثين من الفلاسفة لهذا الإنسان :

فأما قدماء الفلاسفة فقد دانوا بنظرية مجدت الإنسان وأكبرت من شأنه ، هي نظرية « مركزية الإنسان » Anthropecentrism ومؤداها أن الإنسان هو مركز

الكون ، هو تاج الخليقة وبطل الرواية الكونية ، وسيد الكائنات طرًا ، كل ما في العالم وجد من أجل خدمته ، ــ بتعبير أ . ولف A . Wolf وازداد تمسك القدماء بهذا التصور في العصر الهليستي (أي منذ القرن الرابع قبل الميلاد) ــ عند مدارس الرواقية والابيقورية وغيرهما) وساد هذا التصور في العصور الوسطى لأن الكنيسة ــ ذات الحول والطول ــ قد راقها تمجيد الإنسان وإكباره ــ لأسباب دينية ــ فشاعت النظرية في أوربا طولاً وعرضًا ، حتى الشطر الأخير من عصر النهضة الأوربية ، إذ بدأت تظهر كشوف علمية ، ردت الإنسان إلى مكانه الطبيعي من الكون ، كمجرد ظاهرة طبيعية ، أو نوع من أنواع الحيوان !! فشهد بهذا ــ خاصة ــ ثلاث نظريات ، مزقت هالة القداسة التي كانت تحيط بالإنسان ، أما الأولى فكانت نظرية دوران الأرض عند كوبرنيكوس ت 1543 Copernicus وجاليليو ت 1642 Galileo فقالا إن الشمس ــ وليست الأرض كما قال بطليموس رائد الفلك قديمًا ــ هي مركز الكون ، فأضحت الأرض مجرد سيارة صغيرة من سيارات الشمس ، ومن هنا تضاءلت قيمة الإنسان الذي يعيش فوق أديم هذه الأرض ! .

أما النظرية الثانية التي هزت مكان الإنسان ، فهي نظرية التطور عند دارون ت 1882 Darwin ووالاس ت 1913 A . R . Wallace فقد توصلا ــ في وقت واحد ، ومن غير أن يكون بينهما اتصال ــ إلى بطلان الرأي القديم في أن أنواع الحيوان ثابتة لازمت صورها عبر العصور من غير تغاير ولا تطور ، وأثبتا على العكس من هذا أن الأنواع تتطور دوامًا ، وأنها في صراع دائم بحكم قانون الانتخاب الطبيعي ، وعندئذ يكون البقاء للأصلح ، ولما هاجمت الكنائس النظرية عكف دارون على دراسة الإنسان وانتهى من ذلك إلى أن القوانين التي تحكم تطور الحيوان هي نفسها التي تحكم تطور الإنسان ، فالإنسان مجرد حيوان ، والفرق بينه وبين ما نسميه بالحيوان فرق درجة وليس فرق نوع ..!! كما قلنا من قبل .

والنظرية الثالثة هي نظرية اللاشعور عند « فرويد » ومدرسة التحليل النفسي ، ومؤداها أن محتويات اللاشعور من خبرات قديمة وميول فطرية وعواطف مكتسبة ،

تتعارض مع آداب المجتمع وتتنافى مع تعاليم الدين ... وأكثرها يدور حول الغريزة الجنسية ، هذه هي أكبر الدوافع التي تسيطر على سلوك الإنسان ، وتحدد له مسار سيره .. ! .

ومن هذا المنطلق قال بعض الأدباء والكتاب إن الإنسان حيوان سافل منحط !! فالحيوان لا يعرف الكذب والحقد والغش والنفاق ... وغير هذا من صفات لا يتصف بها إلا هذا الذي نسميه إنسانًا ... !! .

* * *

وتعليقًا على هذا نقول لهؤلاء المحدثين الذين هاجموا الإنسان وحقروا من شأنه على هذا النحو المشار إليه ، إننا برغم كل ما قلناه عن حيوانيته وتوحشه ، فإنه متى استجاب لتعاليم الدين .. لإملاءات العقل ، ولإيحاءات الضمير ، ودان بمثل عليا أجرى بمقتضاها سلوكه ، كان بهذا إنسانًا سيطر على الجانب الحيواني في طبيعته واستحق التقدير والاحترام . إنه الكائن الوحيد الذي يستطيع أن يتعالى على واقعه ويتطلع إلى ما ينبغي أن يكون . إنه ـــ فوق هذا ـــ الكائن الوحيد الذي استطاع أن يبتدع علومًا وأن ينشئ فلسفات وآدابًا وفنونًا ، وأن يخترع حضارات ليس في وسع أحد سواه أن يقوم باختراعها ... بهذا وحده يمكن أن نصفه بأنه إنسان ، وأن نضعه تحت عرش الله ! .

* * *

العلم لا يتنافى مع الإيمان الديني :

كان علينا أن نتحدث ـــ في بعض فصول الكتاب عن الصراع الذي كان بين الدين والعلم ، لأن العلم كان جنينًا في أحشاء الفلسفة طوال العصور القديمة

والوسطى ، وشطر من العصور الحديثة ، ثم كادت تزول التفرقة بين العلم والفلسفة في قرننا الحالي ؛ وعلينا أن نكشف في هذه العجالة عن خطأ تورط فيه بعض المستنيرين من المحدثين ؛ ذلك أن العلم لا يستقيم بغير منهجه التجريبي ، ويقتضي هذا أن يحرص العالم على أن يقصر موضوعات بحثه ، على ما كان ظواهر طبيعية أو وقائع جزئية ترتبط بزمانها ومكانها ، وتتقيد بظروفها وأحوالها ، فإذا تعرض العالم لدراسة ما وراء المحسوس تجاوز حدود موضوعه ومنهجه العلمي معا ، فهو لا يدرس ما وراء المحسوس كعالم ، ولكن من حقه أن يدرسه كفيلسوف أو مفكر أو أديب ... فهو إنسان قبل أن يكون عالمًا . فهو مطالب بالتزام منهجه التجريبي في بحوثه العلمية ، فإذا فرغ منها كان من حقه أن يؤمن بما يشاء ، ولو كان وراء عالمنا المحسوس .

لكن بعض الباحثين قد أساء فهم هذه الحقيقة الواضحة ، يقول الأستاذ الدكتور محمد البهي وزير الأوقاف الأسبق في كتاب عرض فيه لموقف الإسلام من الفكر الحديث : إن العلم التجريبي خطر يتهدد العقيدة الدينية .. ! ويهاجم الدكتور النزعة التجريبية التي لا قوام للعلم الطبيعي بدونها ... !! ونسي دعاة هذه الفكرة الضالة أن المجتمع الإسلامي وهو يستيقظ بعد سبات طويل ، لا يستطيع أن يواكب التقدم العالمي بغير العلم والتكنولوجيا ، فبدون هذا يستحيل تحقيق خطة للتنمية ، ويتعذر التصنيع ويمتنع التقدم ، والإنسان في حاجة إلى غذاء مادي حفاظًا على تطور حياته ، كما يفتقر إلى غذاء روحي كفالة لإنسانيته ؛ وقد زاول العلم التجريبي من علماء العرب المتدينين كثيرون إبان العصور الوسطى ، وحققوا في ميادين العلم التجريبي معجزات تعد اليوم من مفاخر الإسلام . بل إن من أعلام العلماء في الغرب من جمعوا بين البحث العلمي والإيمان الديني ، كانوا إذا فرغوا من بحوثهم العلمية عادوا ناسًا يؤمنون بخالق الكون وما جاءت به كتبه المقدسة من تعاليم[1] .

---

(1) انظر كتابنا : العرب والعلم في عصر الإسلام الذهبي — في الفصل الذي أفردناه للفكرالديني الإسلامي الحديث في العالم العربي .

وصفوة القول أن هذا هو الإنسان ، بحيوانيته الشرسة الضارية . وإنسانيته السامية المتعالية ، يكون إنسانًا بالضوابط التي فرضها الدين ... وأقرها العقل ... وارتاح لها الضمير ، وقد تحقق هذا عند صفوة من قلائل الناس ، راضوا أنفسهم على التعالي على حيوانيتهم ، والتطلع إلى مثل عليا دانوا لها بالولاء .

ت . الطويـــل

* * *

مقدمـــة الطبعـة الأولـى

تمهيد - علاقة هذا الكتاب بكتابنا عن النزاع - من قوانين الإيمان - براءة الأديان من تبعات الاضطهاد - إمكان الجمع بين الإيمان والتسامح - ضرورة الإبقاء على الإيمان - لا يملك العدالة متعصب ذو نفوذ - من خصائص الغلو في الإيمان - من شهداء الإسلام - من شهداء المسيحيـة الشرقية - من شهداء البروتستانت - من قتلى قريش - من شهداء البابية - ظمأ الإنسان إلى إهراق الدم - الشغف بالدم عند نساء قريش - الشغف بالدم في الثورة الفرنسية - في محارق محاكم التفتيش - استعلاء الجانب الحيواني في الثورات - حق رجال الدين في دفع الكفر - قيام الحق لا يتطلب الاضطهاد - الاضطهاد عدوان على حرية الضمير -

تمهيـــد :

هذا كتاب يحكي في نطاقه الضيق سيرة فكرة آثمة ، نزفت بها قلوب تغلي حقدًا وتضطرم تعصبًا ، فتوغل في ارتكاب الإثم وتحمل الدين وزر ما تريق من دماء بريئة ، وما تجتاح من مبادئ إنسانية كريمة ! وعلى كره منها مضت مواكب الحرية

في طريقها قدمًا لا تتوقف ولا تتعثر ، إلا لتستأنف سيرها في نشاط يحدوه الأمل الباسم ، وتوقده الغبطة بالظفر المبين .

وفي هذا الكتيب تتبعنا الاضطهاد الديني في المسيحية والإسلام ، في صور سريعة تنم عن أسطع مظاهره ومعالمه ، وتشي بأظهر بواعثه وأسبابه ، وتشير إلى أوضح نتائجه وآثاره . فكشفنا موجزين عن الاضطهاد الدامي الذي أنزله الرومان بالمسيحية وشهدائها في مراحل تاريخها الأولى ، وتتبعناه حين انتقلت دفته من يد الرومان إلى يد الكنيسة الكاثوليكية وأخذت تكوي بناره خصومها من الكاثوليك ـــ وقد كانت إلى الأمس القريب من ضحاياه ! ثم سايرناه في الصراع الذي نشب بين هذه الكنيسة وخصومها من البروتستانت وغيرهم ممن عدوا في زمرة المارقين ، وصحبناه حين آل أمره إلى المصلحين من هؤلاء البروتستانت ، فنكلوا بخصومهم في غير رفق ولا رحمة ! وتعقبناه في مقاومته لرواد الفكر الحديث حين نبت مبدأ التسامح في رءوسهم واستبد هواه بقلوبهم ، فأغراهم بالاستشهاد مع أتباعهم في سبيل الحرية الدينية راضين مختارين . وعقبنا على هذا بفصل عقدناه عن الاضطهاد في الإسلام وأبنا فيه عن موقف الدين الإسلامي من التسامح وحرية الاعتقاد ، ثم انتهينا من هذا كله إلى بيان وجه العظة في موضوع هذا الكتاب .

وقد مكنتنا طبيعة هذا الموضوع ومنهج بحثه من أن نتحرى في علاجه البساطة في التعبير والترفق في مناقشة وجهات النظر ـــ حتى لا يثقل الكتاب على المترفين من القراء ! .

علاقة هذا الكتاب بكتابنا عن النزاع :

أما الترفق في علاج الموضوع فمرجعه إلى أننا قد وضعنا هذا الكتيب على هامش كتابنا الذي أرخنا فيه النزاع بين الدين والفلسفة ، وانتهينا منه إلى نتائج كان من بينها القول بأن الاضطهاد يلازمه الإخفاق كلما نزع إلى تقويض « فكرة صحيحة »

اهتدى إليها النظر الفلسفي أو تكشف عنها البحث العلمي ، فما نهض رجال الدين بالقضاء على حقيقة ما ــ بالغًا ما بلغت جهودهم في هذا الصدد ــ إلا أخطأهم التوفيق وعاشت الفكرة الصحيحة على كره منهم ــ إن اختفت في فترات الاضطهاد المشئوم جد في إحيائها أنصارها بعد انقضاء عهوده الكالحة .

وبينما كنت أعالج هذه الفكرة بالتفصيل في كتابي « قصة النزاع بين الدين والفلسفة » نبتت عندي فكرة لا تدخل في نطاق هذا الموضوع ، ولكنها تحتاج إلى كتيب أعقب به على كتابي السالف الذكر ، أما الفكرة فهي أن الاضطهاد يكتب له النجاح في تحقيق غايته متى قدر له أن يعيش طويلاً ، وكان ينصب على الإيمان الديني فيبقي على مجاله ويحاول تغيير مجراه ؛ واستقراء تاريخ العقائد يقول إن مثل هذا الاضطهاد الدامي لا يخطئه التوفيق حين يهدف إلى إحلال دين مكان دين ، لأنه يجتث العقيدة من قلوب الناس ويغرس مكانها قواعد الدين الجديد ، فإن أخفق في بلوغ غايته حصد الجيل القديم وأتى عليه تقتيلاً وتنكيلاً وتشريدًا ، وعمد إلى الجيل الجديد ونشأه على ما يريد ، وإذا عاشت هذه السياسة عزت العودة إلى الدين القديم ؛ هذه حقيقة سجلها تاريخ الاضطهاد منذ أقدم العصور ، وكان علينا أن نعالجها بإيجاز في هذا الكتيب « قصة الاضطهاد الديني » استيفاء للفكرة التي عالجناها بالتفصيل في كتابنا عن النزاع بين الدين والفلسفة . على أنا نأمل أن يلاحظ القارئ الكريم أن حديثنا عن علاقة هذا الكتيب بكتابنا عن النزاع ، ليس تلخيصًا للأفكار التي تضمنها كلا الكتابين ، وإنما هو مجرد إشارة عابرة إلى العلاقة التي تربط بينهما والاتجاه الذي يمضي فيه كل منهما .

وقد أضاءت دراساتي السالفة موضوع الاضطهاد الديني ، ولكني أدركت عند علاجه أن له جانبًا تاريخيًا محضًا ، وانتزاع فكرة من جوها التاريخي يقتضي الإلمام الكامل بعلاقاتها بالعصر الذي تعيش فيه ، ومن أجل هذا آثرت أن أرجع فيما يبدو مثارًا للظنة في المجال التاريخي إلى أحد زملائي المتخصصين في دراسة التاريخ ، عسى أن آمن بهذا زلل الحكم المبتسر أو النزوع إلى الجور على حقائق التاريخ ، ولهذا أطلعت

زميلي الدكتور محمد مصطفى صفوت أستاذ التاريخ المساعد بجامعة فاروق على بعض فصول الكتاب ، وتفضل مشكورًا بإبداء بضع ملاحظات قيمة .

فلنمهد لدراسة موضوعنا بكلمة خاطفة رفيقة نتناول فيها الحديث عن قوانين الإيمان والاضطهاد والفداء والاستشهاد وما إليه بسبيل :

من قوانين الإيمان :

ذهب جمهرة الباحثين في طبيعة المعتقدات وخواصها إلى القول بأن الإيمان يخضع لناموسين : أولهما يقول إن الإيمان بحكم الضرورة لا يحتمل التسامح ، بل إن عدم التسامح يتماشى طرديًا مع قوة الإيمان عكسيًا مع ضعفه ! والإيمان متى احتل قلوب الناس قل اصطبارهم على من ليسوا على دينهم ، قل الخارجين على تعاليمه وهذه سنة قيل إن تاريخ الاضطهاد الديني قد سجلها منذ أقدم العصور .

وثاني الناموسين يقول : متى قوي نفوذ طائفة من المؤمنين في شعب من الشعوب نزعت إلى الاستبداد بسائر الطبقات ، وجنحت إلى قتال من لا يذعن لسلطانها ويستجيب لتعاليمها ، ويقال إن استقراء التاريخ يؤكد القول بأن الرحمة لا تعرف طريقها إلى قلوب طوائف المؤمنين ! .

براءة الأديان من تبعات الاضطهاد :

وحسبنا من التعليق على هذين الناموسين أن نقول : إن الأصل في الأديان أنها رسالة الحب إلى النزاعين للحقد والبغضاء ، ودعوة السلام إلى التواقين للقتال الراغبين في إهراق الدماء ، ونداء الرحمة والتسامح إلى المشائين بالقسوة والانتقام وإذا كانت المسيحية قد فاقت الأديان كلها في إكراه الناس على اعتناقها ، فقد ارتكبت فظائعها باسم المسيح الذي يقول لمريديه في خطبته على الجبل : سمعتم أنه قيل تحب قريبك

وتبغض عدوك ، وأما أنا فأقول لكم : أحبوا أعداءكم ، باركوا لاعنيكم ، أحسنوا إلى مبغضيكم ، وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم ، لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السموات[1] .

ومن هنا كان مرد الفظائع التي تنسب إلى المسيحية زورًا ، إلى تزمت الجهال من أتباعها في الغرب ، أما المستنيرون من ذوي الصدور الرحبة من أهلها في الشرق والغرب على السواء ، فقد ملأ الإيمان السمح صدورهم ، وشاع نوره في نفوسهم فبرئت ساحتهم من آثار التعصب البغيض وكانوا عنوان الحب الذي نزلت المسيحية مبشرة به .

والقول بأن الإسلام قد انتشر بالسيف ينطوي على بهتان عظيم ، فما دعا الإسلام للقتال إلا ردًا لفتنة المؤمنين عن دينهم ، لأن الفتنة أكبر من القتل — على ما سنعرف عند الحديث عن الاضطهاد في الإسلام ؛ وقد نزل القرآن الكريم داعيًا للحب مبشرًا بالتسامح منفرًا من إكراه الناس على اعتناق الإسلام بقوله تعالى : ﴿ **لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي** ﴾ وليس لأحد من رجال دينه على أحد سلطان ، بل ليس رسول الله إلا مجرد مذكر ومبلغ ﴿ **فذكر إنما أنت مذكر * لست عليهم بمسيطر** ﴾[2] .. إلى آخر ما سنعرفه في الفصل الذي سنعقده عن الاضطهاد في الإسلام .

إمكان الجمع بين الإيمان والتسامح :

وما من شك في أن تاريخ الأديان قد عرف آلاف المؤمنين الذين صدق إيمانهم

---

(1) إنجيل متى الإصحاح الخامس ، وسنورد بقية هذه الآيات في نهاية الفصل الذي سنعقده عن اضطهاد البروتستانت ، لنرى التباين الملحوظ بين طبيعة المسيحية وتصرفات المتزمتين من رجالها .

(2) انظر محمد عبده : رسالة التوحيد ص 171 - 191 طبعة سادسة وفي كتابه عن الإسلام والنصرانية ص 68 - 67 طبعة أولى .

واتسعت صدورهم لآراء خصومهم ، وبرئت نفوسهم من أدران الحقد على من خالفهم في أمر عقيدتهم . هذه ظاهرة سجلها تاريخ الأديان وأكدها الاستقراء في كل زمان ومكان .

فالإيمان لا يستلزم التعصب ولا يقتضي التزمت إلا عند من صدئت قلوبهم وأظلم الجهل عقولهم ، وأكلت الإحن والأحقاد صدورهم ؛ وإذا نزل الإيمان السمح بالقلب السليم ملأه صفاء وبدل غيابته نورًا . فالتعصب يلازم الإيمان في العصور التي يعتريها الركود العقلي ، ويزايله حين يمحى الجمود باستنارة العقل ، إذ تتسع جوانب النفس وتصفو القلوب ، ويجتمع في المؤمن وحي القلب ومنطق العقل من غير أدنى تعارض .

ومن هذا كله نرى خطأ الزعم القائل بأن الإيمان لا يحتمل التسامح ، ولعل الأصح أن يقال إن الإيمان والتسامح لا تربط بينهما علاقة تضاد أو تناقض تمنع اجتماعهما معًا ، إنما تقوم علاقة التضاد بين التعصب والتسامح ، واجتماع الضدين عند المناطقة محال .

ضرورة الإبقاء على الإيمان :

على أن نتائج التعصب المتزمت ــ بالغة ما بلغت فظاعتها ــ لا تبرر نزوع أحرار الفكر إلى القضاء على الإيمان في كل صوره ، لأن الإنسان بطبيعته لا يستطيع ــ بالغًا ما بلغ احترامه لشريعة العقل ــ أن يحيا فارغ القلب ، وليس الإلحاد الصادق في كل صوره إلا إيمانًا انحرف عن طريقه المرسوم ! ومن هنا قال الملحدون الذين أرخوا ظاهرة التدين عند الناس : لا يموت في قلب الإنسان إله حتى يحتل مكانه إله آخر .. ! .

ناهيك بما يترتب على الإيمان من وجوه النفع المادي والأدبي على السواء ، إن الإيمان يشيع الطمأنينة في النفس ويملأ شعابها غبطة وروحًا ، وهذه الطمأنينة زاد لا يستغني عنه إنسان ، هذا بالإضافة إلى ما يترتب على الإيمان من نفع مادي يعبر

عنه فولتير بقوله : إذا لم يكن الله موجودًا لوجب اختراعه ، يجب أن نؤمن بالله حتى تكون زوجتي أكثر وفاء لي ، وخادمي أقل رغبة في السرقة ..! وهو رأي أعرق في القدم من فولتير ، بصرف النظر عن تدين أصحابه أو إلحادهم .

لا يملك العدالة متعصب ذو نفوذ :

أما ثاني الناموسين اللذين أسلفنا ذكرهما في مستهل هذا الحديث ، فإنا نلاحظ على منطوقه ما لاحظناه على الناموس السالف ، ذلك أنه يستخدم الإيمان مكان التعصب ، لأن المؤمن متى صح إيمانه أمكنه أن يجمع بين العدالة والنفوذ ، بل إن الإيمان الصحيح يقي صاحبه شر الجور والظلم ويبعد عنه النزوع إلى البغي والعدوان ، إنما يقع التنافر بين العدالة والتعصب ، وتنتفي العدالة متى استقام التزمت ، فإن اقترن التزمت بالنفوذ وقع الاضطهاد لا محالة .

وإذا كان من الحق أن يقال إن المؤمن قد يجمع بين السلطة والعدالة فيكون صاحب نفوذ ولا يكون ظلوما ، فإن من العسير أن يصدق هذا الحكم إذا تجاوزنا الأفراد إلى الطبقات والطوائف ، ومن هنا كان الخطر في استحواذ أهل التزمت من رجال الدين على سلطة زمنية تمكنهم من إيذاء خصومهم . وإذا كان من خصائص الإيمان المتزمت أن يجزع أهله من كل مذهب يخالف عقيدتهم ويميلوا إلى التنكيل بصاحبه ، وجب أن يجرد غلاة المتعصبين منهم من كل سلطة تيسر لهم أسباب الاضطهاد ، وبهذا يبقى للإيمان جلاله مع تلافي ما يحتمل أن ينجم عنه من سوء .

من خصائص الغلو في الإيمان :

إن الإيمان الصادق يستبد بهوى أهله ويدفعهم إلى التفاني في نصرته والاستشهاد في سبيله والغبطة تشيع في نفوسهم طولاً وعرضًا ! إنه يخدر أعصابهم ويفقدهم

الإحساس بآلام العذاب ! عند المثل الأعلى للمؤمن الصادق ـــ تلتقي اتجاهات عقله وتيارات قلبه ، فيهون في سبيل مبدئه المال والجاه وكل غرض من أغراض الحياة يمكن أن يستثير جمهرة الناس ويستبد بمشاعرهم ، ومن ثم تكون الشجاعة النادرة والجرأة الملحوظة والاستخفاف بالموت ، فيبدو الإيمان وكأنه عطل الكثير من الغرائز والميول الفطرية عن أداء وظيفتها ، فسرعان ما تهون في النفس الأثرة والملكية والمحافظة على البقاء وغيرها ، ويصبح الإنسان أسير مبدئه ! ومن أجل هذا كله قيل إن الإيمان يزحزح الجبال ، لأنه يقوى على ما يعجز عنه العقل والتروي والتبصر وما إليه بسبيل .

وأطرف نتائج الفداء أنه يكفل لأصحابه الغلبة بالخلود ، وإن سجل التاريخ المادي انتصار خصومهم في ظاهر الأمر ! .

وخصائص الغلو في الإيمان ـــ من تعطل الغرائز عن أداء وظيفتها ، والاستخفاف بالموت والعذاب ، والتفاني في نصرة المطلب عن غير وعي أو شعور والثقة البالغة بالنفس ، والشجاعة النادرة في الدفاع عن المبدأ ، وتحول الألم الممض في سبيل ذلك إلى غبطة بالغة ، والإيثار ويقظة الضمير وغير هذا من خصائص ، إنما يبدو في كل حالات الإيمان الصادق ، وسيان بعد هذا أن يكون موضوع الإيمان دينًا منزلاً له حرمته وقداسته ، أو يكون عقيدة يعتقد أصحابها أنها دين منزل ، أو يعلمون أنها مجرد فكرة من وضع البشر غاصت إلى مجال اللاوعي واستحالت عقيدة يؤمن بها الأتباع . فلنعرض بضع نماذج للتعبير عن هذه الخصائص ، وليعذرنا القارئ إن أطلنا في ذكر هذه الشواهد ، فإنما نريد بالإكثار منها أن ننقله إلى جو هذا الكتاب ، وإذا كان بعضها لا يمثل الاضطهاد الديني ، فإنها صور حية للتعبير عن الفداء والإيمان والاستشهاد في سبيل المبدأ :

من شـــهداء الإسلام :

ملأ نور الإسلام قلوب أتباعه فحملهم الإيمان به على جناحه وانطلق بهم

إلى حيث مكنهم في فترة وجيزة من الزمن من تقويض أعظم دولتين عرفهما تاريخ العصور الوسطى : هما البيزنطية والفارسية ! ومن أظهر نماذج الاستشهاد في تاريخه ما وقع في غزوة مؤتة ، إذ اتجه رسول الله ﷺ إلى الشام ووجه إليها ثلاثة آلاف لمقاتلة أعداء الإسلام ، وكان اللواء لزيد بن حارثة فإن أصيب فلجعفر بن أبي طالب ، فإن أصيب فلعبد الله بن رواحة ، فحمل زيد راية النبي « واندفع بها في صدر العدو وهو موقن أن ليس من موته مفر ، لكن الموت في هذا المقام هو الاستشهاد في سبيل الله ، وليس الاستشهاد دون النصر والظفر مكانًا ، وحارب زيد حرب المستميت حتى مزقته رماح العدو ، فتناول الراية من يده جعفر بن أبي طالب ، وهو يومئذ في الثالثة والثلاثين من عمره ، وهو شاب تعدل وسامته شجاعته ، وقاتل جعفر بالراية حتى إذا أحاط العدو بفرسه اقتحم عنها فعقرها ، واندفع بنفسه وسط القوم منطلقًا انطلاقة السهم يهوي سيفه برءوسهم حيثما وقع ، وكان اللواء بيمين جعفر فقطعت ، فأخذه بشماله فقطعت ، فاحتضنه بعضديه حتى قتل !! يقال إن رجلاً من الروم ضربه يومئذ ضربة قطعته نصفين ! فلما قتل جعفر أخذ ابن رواحة الراية ثم تقدم بها وهو على فرسه » ، ومضى للقتال بعد تردد حتى استشهد[1] .

من شهداء المسيحية الشرقية :

وإذا كانت طبيعة الغلو في الإيمان واحدة ، تشابهت نتائجه وآثاره مع اختلاف الحالات ، وحسبنا في التدليل على هذا أن نورد الشواهد عليه في المسيحية وغيرها :

انتشر الاضطهاد الديني في مصر قبيل الفتح العربي ، وفكر « هرقل » بعد انتصاره على الفرس في أن يوحد المذاهب المسيحية كلها ويصبها في مذهب واحد ،

---

(1) هيكل : حياة محمد ص 393 .

وأقر هذا المذهب الموحد مجمع « خلقيدونية » وتولى بطرقة الدين في الإسكندرية « قيرس » الذي أخفق في إقناع المصريين بالمذهب الجديد ، فوطن العزم على إكراههم على اعتناقه ! وكان كبير أساقفة القبط في مصر هو « بنيامين » الذي كان موضع حب المصريين ومثار احترامهم ، وكان شديد التعصب لمذهب اليعاقبة الذي يقول « إن طبيعة الإلهية والبشرية امتزجتا في المسيح وصارتا فيه طبيعة واحدة ، فكان عند التجسد ذا طبيعتين أما بعده فصار ذا طبيعة واحدة وهو يخالف مذهب الملكانية الذي يقول : إن الابن مولود من الآب قبل الدهور غير مخلوق ، وهوجوهره ونوره ، والابن اتحد بالإنسان المأخوذ من مريم فصارا واحدًا هو المسيح » وعندما أخفق قيرس في إقناع الأقباط بالحسنى لج في البطش والاضطهاد عشر سنوات حسومًا[1] .

وكان أخو بنيامين ممن عذبو كثيرًا ، إذ أوقدت المشاعل وسلطت نارها على جسمه ، فأخذ يحترق حتى سال دهنه من جانبيه إلى الأرض . ولكنه لم يتزعزع عن إيمانه ، فخلعت أسنانه ثم وضع في كيس مملوء من الرمل وحمل في البحر حتى صار على قيد سبع غلوات من الشاطئ ، ثم عرضوا عليه الحياة إذا هو آمن بما أقر مجلس « خلقيديونية » ، فعلوا ذلك ثلاثًا وهو يرفض في كل مرة ، فرموا به في البحر فمات غرقًا ! » .

وقد تميز « قيرس » غيظًا حين أقبل على الدير فوجده خلاء ممن فيه إلا من خازنه ، ولما جلده قال له إن صمويل الزاهد قد خطب في رهبان الدير ووصفه بالكفر وعدم الإيمان بالله حتى فر الرهبان قبل مقدمه ! ولما ذهب قيرس دعا الإخوان إلى ديرهم آمنين ، وأما البطريق « المقوقس » فقد مضى إلى الفيوم ودعا أتباعه وأمرهم بأن يجيئوه بذلك العابد « الأباصمويل » مكتوف اليدين من خلاف ، وأن يضعوا في عنقه طوقًا من الحديد ، وأن يدفعوا به كما يدفع اللصوص ، فجاءوا به من الدير

---

(١) هيكل : الفاروق عمر حـ2 ص 76 - 78 .

الذي كان فيه وذهب صمويل مستبشرًا في صحبة الله وهو يقول « سأمنح إن شاء الله اليوم الشهادة بأن يسفك دمي في سبيل المسيح » وأخذ يسب المقوقس دون أن يخشى شيئًا ، فلما دخل عليه أمر المقوقس جنده أن يضربوه حتى سال دمه كما يسيل الماء ، ثم قال له « صمويل أيها الزاهد الشقي من ذا أقامك رئيسًا للدير وأمرك أن تعلم الرهبان أن يسبوني ومذهبي ؟ فقال له العابد : إن البر في طاعة الله وطاعة وليه البطريق « بنيامين » وليس في طاعتك والدخول في مذهبك الشيطاني — يا سلالة الطاغوت ويا أيها المسيح الدجال » فأمر قيرس جنوده أن يضربوه على فمه وراح يتوعده ، فقال له صمويل « لقد كان إبليس من قبل كبيرًا على الملائكة ولكن كبره وكفره فسقا به عن أمر ربه ، وهكذا أنت أيها الخادع الخلقيدوني ، فإن مذهبك مذموم وإنك أشد لعنة من الشيطان وجنوده » ! .

وبمثل هذه الجرأة والشجاعة الأدبية النادرة ، كان صمويل يخاطب صاحب الحول والطول في البلاد[1] ! .

من شهداء البروتستانت :

وفي حركة الإصلاح الديني في أوربا اتقد أتباع المذهب البروتستانتي حماسة لنصرة مبدئهم ، واضطرموا تعصبًا له وتمسكًا به ، وكانوا ينزفون حقدًا على خصومهم ورغبة في التنكيل بهم — وسنعرف من آثار هذا الشيء الكثير ، وقد تفانوا في الدفاع عن مذهبهم الذي آمنوا به ؛ أفقدهم الإيمان الشعور بالألم حتى كانوا يتقدمون إلى مواقد النار التي أقامها الكاثوليك لإحراقهم والغبطة تشيع في نفوسهم ، ويتجهون إلى نصح من حولهم للعدول عن الكثلكة واعتناق البروتستانتية دينًا ! حتى رأى أولو الأمر أن ينتزعوا — قبيل إحراقهم — ألسنتهم من أفواههم ، اتقاء لسحر

---

(1) بتلر : فتح العرب لمصر . ترجمة الأستاذ الجليل محمد فريد أبو حديد بك . ص 163 - 165 طبعة 1933 م .

تأثيرهم ـــ ! وبمثل هذه الروح كابدوا آلام الحروب الدامية وعناء المذابح المروعة ، يهزهم الحنين إلى ربهم مستشهدين في سبيل دينهم ، حتى قدر لمذهبهم أن ينتصر ، وكتبت له السيادة في بعض الأمم[1]

وهكذا يؤدي الغلو في الإيمان إلى الاستخفاف بالألم والعذاب والموت ، والإقبال على الاستشهاد في فيض من الغبطة والرضا ، وليس ينفي هذا أن يهدف الاستشهاد إلى غير النعيم الأخروي ، وإذا كانت النماذج التي أسلفناها تفسر هذه الظاهرة في المؤمنين بالأديان المنزلة ، فلدينا الكثير مما يشبهها من وجوه الاستشهاد في سبيل مبادئ لم ينزل بها وحي ، ومرد التشابه في هذا الصدد إلى أن طبيعة الغلو في الإيمان واحدة ، بصرف النظر عن موضوعه ومجاله :

من قتلى قريش :

وقد وقع لقريش في غزوة أحد مثل ما وقع للمؤمنين من المسلمين في وقعة مؤتة ـــ على ما روينا منذ حين ـــ فكان لواؤهم لا يسقط من يد حتى يتقدم من يحمله ، قتل علي طلحة بن أبي طلحة ، فحمل عثمان بن أبي طلحة اللواء ، فلما

---

(1) وقد عانى اليهود الكثير من ضروب الاضطهاد المرير الدامي طوال تاريخهم ، واستشهد الكثيرون منهم من أجل دينهم . وحسبنا من مظاهر استخفافهم بالموت ما وقع في وقعة قريظة ، إذ اشتد حصار المسلمين لهم فاختاروا سعد بن معاذ الأنصاري حكما بينهم وبين خصومهم ، فأمر بأن تقتل المقاتلة منهم وتقسم الأموال ... فقدم حيي بن أخطب لتضرب عنقه ، فقال له النبي : « ألم يخزك الله يا حيي فأجابه حيي : كل نفس ذائقة الموت ولي أجل لا أعدوه ، ولا ألوم نفسي على عداوتك ثم التفت إلى الناس وقال : أيها الناس إنه لا بأس بأمر الله ، كتاب وقدر وملحمة كتبها الله على بني إسرائيل » .

وسعى ثابت بن قيس عند رسول الله يستوهبه دم الزبير بن باطا القرظي ، وأجاب رسول الله طلبته ، ولكن الزبير حين علم بالأمر قال : « شيخ كبير مثلي ، لا أهل ولا ولد له ، ماذا يصنع بالحياة ! » ثم سأل عن زعماء بني قريظة فعلم أنهم قتلوا ؛ فقال : « إني أسألك يا ثابت بيدي عندك إلا ألحقتني بالقوم ، فوالله ما في العيش بعد هؤلاء من خير ، فما أنا بصابر لله فعلة دلو ناضح (أي مقدار هوي الدلو في البئر) حتى ألقى الأحبة » وبهذا هانت الحياة عنده ، فضربت عنقه بمشيئته .

لقي مصرعه على يد حمزة تقدم لحمله أبو سعد بن أبي طلحة ، وصاح يقول للمسلمين : « أتزعمون أن قتلاكم في الجنة وقتلانا في النار ؟ والله إنكم لتكذبون ، ولو كنتم تؤمنون بما تقولون حقًا فليتقدم منكم من يقاتلني . وضربه علي أو سعد ابن أبي وقاص بسيفه ضربة فلقت هامته ، وتعاقب حملة اللواء من بني عبد الدار حتى قتل منهم تسعة ، كان آخرهم صؤاب الحبشي غلام بني عبد الدار ، وقد ضربه قزمان بالسيف على يده اليمنى فتناول اللواء باليسرى . فقطعها قزمان بسيفه ، فضم صؤاب اللواء بذراعيه إلى صدره حتى حنى عليه ظهره وهو يقول : يا بني عبد الدار هل أعذرت ؟! »[1] .

من شهداء البابية :

أنشأ هذه الديانة السيد علي محمد الشيرازي حين اعتبر نفسه باب العلم بالحقيقة الإلهية ، في عام 1844 م[2] ، واعتنق عقيدته الكثيرون في بلاد الفرس وآمنوا برسالته ، وقد كانت هذه الفرقة دينية ولقيت الكثير من ضروب الاضطهاد الدامي .

بدأت الحكومة بإعدام زعيم البابية لخروجه على مذهب الجماعة ، وكبلت بالحبال مريديه من نساء ورجال وأطفال ، وجردت أجسامهم من الثياب وأحدثت

---

(1) المصدر السالف ص 289 .

(2) هي مجموعة عقائد مستمدة من مختلف الديانات ، غايتها إصلاح البشر (انظر مادتي باب وبابي للمستشرق هيورت Ch . Huart في دائرة المعارف الإسلامية — وهي الآن البهائية وهي منتشرة في إيران وأمريكا ، ولها في مصر المحفل الروحاني المركزي ، وله نشاط ملحوظ يبدو في كثرة نشراته وآثاره المؤلفة والمترجمة ، بل في ردوده المتقنة على كل من مس ديانته بسوء في الصحف والمجلات وغيرها . وفي كتاب « مطالع الأنوار » ترجمة شوقي أفندي رباني (القاهرة 1940) فيض من أمثال الاستشهاد تعبر عما تقصده بخصائص الفداء والتضحية في سبيل الإيمان .

في جسم كل منهم جرحًا وضع الجلاد فيه فتيلاً ملتهبًا ، وانطلق الموكب على هذا النحو في شوارع طهران وقد اضطرم الجميع حماسة فراحوا ينشدون في صوت جهوري قائلين : إنا لله وإنا إليه راجعون ! ومضى الموكب والجنود من خلفه.، فإذا سقط في الطريق طفل داسه أبواه ومرا به استخفافًا .. ! وخطر لأحد الجلادين أن يهدد أبا بضرب عنق ولديه على كتفه إذا لم يعدل عن اعتناق البابية دينًا ، فبادر الرجل بالانطراح على الأرض مستخفًا بوعيده وسارع أكبر الولدين وكان في الرابعة عشرة من عمره ، فالتمس من الجلاد أن يبدأ بذبحه ويثني بأخيه الأصغر ..! .

وكان البابي يتقدم إلى سيف الجلاد فإذا بقرت بطنه رفع صوته منشدًا : إنا لله وإنا إليه راجعون ! وقد صلب زعيم المذهب مع أحد مريديه على حائط توطئة لإعدامهما ، فسمع الناس المريد يقول لأستاذه : أستاذي : أراض أنت عني ؟ وأمثال هذه الحوادث في تاريخ البابية كثيرة وقد فاضت بها كتبهم وسير رجالهم .

وإذا كان الاستشهاد الذي مثلنا له من قريش والبابية قد وقع من أجل عقيدة وضعها أصحابها في منزلة الأديان الموحى بها ، فقد وقع ما يشبه هذا الاستشهاد في ثورات يعلم أصحابها يقينًا أن مبادئها من صنع البشر . ومرد التشابه في هذه الألوان من الاستشهاد إلى وحدة طبيعته في كل ما كان صادرًا عن أصل ديني[1] .

حسبنا هذا من الشواهد التي تشير إلى خصائص الاستشهاد عند أهل الإيمان العميق ، وأظهرها تعطل غرائز المحافظة على البقاء والأثرة وغيرها عن أداء وظيفتها ،

---

(1) من أظهر الأمثال التي تشهد بصحة ما نقول ، ما لقيه العدميون والإرهابيون المتمردون من طلاب الدنيا في روسيا ، كان الإيمان المترمت يحملهم على جناحه ويطلق بهم إلى حيث يسامون العذاب صنوفًا وألوانًا ، راضين بمصيرهم مغتبطين بآلامهم ، من غير أن يغريهم بهذا طمع في نعيم جنة ، أو خوف من عذاب جحيم ! .

وقد اعتقد القائمون بالثورة الفرنسية أنهم رسل دين جديد ، وجدت محاكم اليعاقبة في إبادة الألوف ممن حامت حولهم الريب والظنون ، فتقدم الشهداء إلى المقصلة بجنان ثابت وقلب مطمئن ، واعتلى الجيرونديون درجاتها رافعين أصواتهم بنشيد المارسليز .. ! .

بالإضافة إلى ما يعتري الحس من تخدير يشل عمله ، بل تحول الإحساس بالألم المرير الممض ــ في وقدة الحماسة وسورة الدفاع عن المبدأ ــ إلى فيض من الغبطة والرضا ! وسيان بعد هذا أن يكون الاستشهاد من أجل دين منزل أو فكرة من وضع البشر ! .

ظمأ الإنسان إلى إهراق الدم :

إن من يتتبع تاريخ الثورات الدينية ، وما وقع إبانها من مذابح مروعة وحركات إبادة وقتل وإحراق ، تساوره الدهشة من إقدام الإنسان على ارتكاب مثل هذه الفظائع ، ولكن البحث في النفس الثائرة المتمردة قد أثبت ظمأ الإنسان إلى قتل غيره من حيوانات وأناسي على السواء ! وإذا كانت الحضارة قد عطلت بزواجرها غرائز الإنسان في هذا الصدد ، فإنها لم تستطع أن تقضي عليها قضاء كاملاً ، وإذا كان جمهرة فلاسفة الأخلاق قد ردوا النزوع إلى الخير عند الإنسان إلى فطرته ، وغالى بعضهم فوحد بين الخير والجمال ومزق الصلة بين الأخلاق والدين المنزل ، وأبى أن يكون فعل الخير أثرًا من آثار الترغيب في نعيم الجنة والتخويف من عذاب الجحيم ، ورأى أن الفضيلة جمال تهفو إليه النفوس ...[1] إلى آخر ما قيل في هذا الصدد ، إذا كان هذا هو ما ذهب إليه بعض فلاسفة الأخلاق الذين ينزعون إلى تصوير المثل الأعلى للسلوك الإنساني ، فإنه لا ينفي ما قلناه في كتاب لنا منذ عشر سنوات « .. والمرء إنما يمقت الشر إن عاش بعيدًا عنه . ويهلع لارتكاب الخطيئة إذا لم يألفها ، فإن أقام في جوها وتنفس نسماتها أحبها ومال إليها حتى لا يطيق فراقها ولا يحتمل العيش بدونها ! وقد يصبح الشرير محترفًا ! يفعل الشر لذاته ويأثم بارتكاب الخطيئة ولا غاية له إلا التمتع بها وإرواء شهوته منها ، والجندي الذي يمضي

---

(١) هذا في مذهب الحاسة الخلقية Moral Sensc بوجه خاص ، وأكبر أتباعه شافتسبري وهاتشسون .

إلى القتال مضطربًا جزعًا ويلقي طعنته الأولى خائفًا وجلاً ، لا يلبث حتى يشتد الظمأ به إلى بقر البطون وإهراق الدماء »[1] .

والملحوظ في تاريخ الثورات في كل عصورها أن الزواجر حين ترتفع ، ينطلق الإنسان إلى التمشي مع الجانب الحيواني عنده ويخف إلى الاستجابة لوحي شهواته ، ومن هنا كان تقلب المشاعر في فترات الثورات والفتن ، بحيث تستحيل الوداعة والرقة والحياء ونحوه إلى صنوف من الوحشية والخشونة والاستهتار .. وفي تاريخ الثورات والفتن فيض من الشواهد حسبنا منها :

الشغف بالدم عند نساء قريش :

هزمت قريش في غزوة بدر فناحت نساء قريش على قتلاها شهرًا كاملاً ، جززن فيه شعر رءوسهن وأخذن أنفسهن بالنواح حول راحلة القتيل أو فرسه إلا هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان ، فإنها أبت أن تشاطرهن النحيب ، فلما سألنها : ألا تبكين موت أبيك وأخيك وعمك وأهل بيتك ؟ قالت : إني أخشى أن يبلغ بكائي محمدًا وأصحابه فيشمتوا بنا مع بنات بني الخزرج ، والله لن أبكي حتى آخذ ثأري من محمد وأصحابه ، والدهن علي حرام حتى نغزو محمدًا ! ولبثت لا تقرب الدهن ولا فراش زوجها أبي سفيان ــ وكان مثلها مغيظًا محنقًا ــ وتحرض على القتال حتى كانت وقعة أحد فاستأجرت فيها وحشيًا الحبشي لقتل حمزة بن عبد المطلب عم النبي ، وقتل حمزة وتم النصر في نهاية المعركة لقريش ، فانطلقت هند مع نساء قريش للتمثيل بجثث القتلى من المسلمين ، وأخذن « يجدعن الآذان والأنوف ، وجعلت هند لنفسها منها قلائد وأقراطًا ، ثم إنها بقرت بطن حمزة وجذبت بين يديها كبده وجعلت تلوكها بأسنانها فلا تستطيع أن تسيغها ! وبلغ من شناعة ما فعلت وما فعل النسوة

---

(1) انظر كتابنا « قصة الكفاح بين روما وقرطاجنة » ص 85 طبعة ثانية 1946

معها بل ما فعل الرجال كذلك من الفظائع ، أن تبرأ أبو سفيان — زوجها — من تبعتها وأعلن أنه لم يأمر به وإن كان قد اشترك فيه » ..[1]

الشغف بالدم في الثورة الفرنسية :

اشتعلت نار الثورة الفرنسية وأقيمت المشانق لإعدام المتهمين بالخيانة العظمى ، ونشطت حركة الإعدام بكثرة ما كان من اتهامات وجهت يمنة ويسارًا دون أن يحرص أحد على تحقيق صحتها وتحري الدقة في بحثها ، استخفافًا بأرواح الناس في غمرة الثورة المستعرة .

وكانت السيدات الفرنسيات ينطلقن في كل صباح إلى حيث تقام المشانق رغبة في التلهي بمنظر القتلى حين تفصل المقصلة رءوسهم عن أجسادهم .. ! .

وانتدب المؤتمر — فيمن انتدب — الكاهن لوبون للهيمنة على حركة الثورة في الأقاليم ، فأقام المقصلة بحيث تشرف على نوافذ بيته ليتمكن مع زوجته وصحبه من التمتع بمشاهدة مناظرها ، وأقام إلى جوارها مقصفًا للنظارة من الثائرين ! وكان الجلاد يلقي بجثث الضحايا في أوضاع مثيرة للضحك ، وكان « كاريه » يحمل ضحاياه على أن يحفروا قبورهم ليدفنهم فيها أحياء ، ويصدر أوامره بقتل النساء والأطفال غرقًا ، ثم يقول إنه لم يضحك من قتل رجال الدين بقدر ما ضحك من منظر وجوههم وهي تتقلص وتتقبض عندما تحين ساعتهم ![2] .

---

(1) انظر هيكل باشا في حياة محمد ص 270 و 287 و 288 و 292 .

(2) الأمثلة مستقاة من لوبون في كتابه La Revolution et la Psychologie des Revolutions وقد ترجمه الأستاذ محمد عادل زعيتر تحت عنوان « الثورة الفرنسية وروح الثورات » .

في محارق محاكم التفتيش :

وكانت محاكم التفتيش في مطاردتها للمارقين ودفعها عدوان الملحدين ، تغريهم بالتوبة والعدول عما أدينوا من أجله ، فإن كابروا وأصروا ، أصدرت أحكامها بمروقهم وتولت السلطات تعذيبهم أو إعدامهم أو إحراقهم . فإن أحرقوا كان إحراقهم في محارق تقام في ميادين عامة في المدن الكبيرة وتنظم لهذا احتفالات تشهدها الجماهير والأحبار والملوك أحيانًا ، وكانت هذه الاحتفالات أشبه بالأعياد يطرب لها الناس ولا يجدون في مناظرها ما يدعو إلى الضيق والاشمئزاز ! .

استعلاء الجانب الحيواني في الثورات :

نرى مما أسلفنا كيف تتبدل المشاعر إبان الفتن ، ويتحول الإنسان الوديع في غمار الثورة حيوانًا مفترسًا يلذ لارتكاب ما كان يفزع من مجرد تصوره ، ويسعى إلى عمل ما كان ينفر منه ويتقزز ؛ وقد قيل إن أكثر الذي ارتكبوا فظائع الثورة الفرنسية ــ وهي تشبه في طبيعتها الثورات الدينية ــ لم يكونوا من المجرمين والسفاكين ، بل كانوا من المستنيرين الذين ظن البعض أن التعليم هذب طباعهم ورقق مشاعرهم ، وينسحب هذا على أكثر أعضاء الجمعية التشريعية والمؤتمر ، وما يقال عن الثورة الفرنسية ينسحب على الثورات الدينية ، لأن النبع النفسي الذي صدرت عنه واحد .

في الثورات ــ ولا سيما الديني منها ــ يستعلي الجانب الحيواني في نفوس الناس ، وتستيقظ ميولهم الفطرية ويخفت صوت العقل وترتفع الزواجر التي أقامها ومن ثم يبدو الإنسان وحشًا ضاريًا ، ومن هنا كانت مذابح الاضطهادات الدينية وفظائع حروبها أمرًا عاديًا مألوفًا متى عرفت بواعثه ومقدماته ؛ وإذا كان علم الأخلاق يضيق بهذه النكسة التي يرتد بها الناس إلى الحيوانية الأولى ، ويأسف لانسياق الناس وراء شهواتهم ، وإيغالهم في الإثم حين يلقون بأنفسهم في عباب الفتن

والثورات ، فإن علم النفس ليعرف كيف يفسرها في ضوء نواميسه السيكولوجية من غير أن يخضعها لأحكام الشر والخير ، فيمهد بهذا للمؤرخين وعلماء الاجتماع سبل دراستها من غير أن يجدوا فيها ما يثير دهشة أو يبعث أسفًا ! .

حق رجال الدين في دفع الكفر :

وإنصافًا للإيمان ــ بما هو إيمان ــ نقر حق المؤمن المطلق في الدفاع عن عقيدته ، ورجال الدين بحكم إيمانهم من ناحية ، وبحكم وظائفهم من ناحية أخرى ، مطالبون بمقاومة كل فكرة هدامة ترمي إلى تقويض دينهم وزعزعة نفوذهم ، وتهاونهم في أداء هذه المهمة اتهام لشعورهم بأقدس واجب .

وهذا بالإضافة إلى أن المذهب الجديد في أكثر حالاته يهدد سمعتهم وينذر بحق الناس في الاستخفاف بهم ، ويبرر عصيان أتباعهم لهم ، إن سمعتهم لتعلو في نظر الناس بمقدار ما يبدو الحق في جانبهم ، وتتداعى متى ظهر بطلان المبدأ الذي اعتنقوه وروجوا له بين الناس ؛ ومن أجل هذا حرص رجال اللاهوت في روما على أن يعلنوا للعالم أن البابا معصوم من الخطأ ، ولم يجد مجلس الفاتيكان غضاضة في أن يصدر بهذا قرارًا منذ نحو ثمانين عامًا ! .

على أن هذا كله لا يبرر الكبح والإكراه وتعذيب الخصوم والتخلص منهم بالنفي والإحراق والإعدام ، ولا سيما أن الاضطهاد ــ في الكثير من حالاته ــ ينتهي إلى عكس الغاية التي وضع من أجلها ، وهو لا ينتصر في القضاء على عقيدة إلا يوم تطول عهوده السود ويمتد أمد أزماته الخانقة وحروبه الدامية ومذابحه المروعة ، ومع هذا لا تستحق ثمرته الثمن الباهظ المرهق الذي دفع من أجلها .

قيام الحق لا يتطلب الاضطهاد :

وإذا كان الذين ينزلون الاضطهاد بخصومهم يعتقدون أنهم على حق فهل يحتاج

الحق ليستقيم أمره وتثبت قدمه ويطاول الدهر حياة إلى سيف يشد أزره ..؟ ما قيمة العنف في إقرار الباطل مكان الحق ! قد يكون في الباطل من وجوه الفتنة والإغراء ما يجذب الناس إلى اعتناقه والتمسك به ، ولكن دولته لا تدوم طويلاً .. وإذا تولى السيف حماية الباطل بقي الباطل حيناً لا يلبث بعده أن يتداعى وتتكشف حقيقته للعيان ، وقد ينصرف الناس عن الحق متى عميت بصيرتهم وكفوا عن النظر الصحيح ، ولكنه لا يلبث أن يتبدى لمن تهديهم إليه الفطر السليمة ويجتذب إليه الأعوان يتكاثر عديدهم بمرور الأيام ، ويشتد إيمانهم به وتفانيهم في الدفاع عنه حتى يستقر أمره ويحتل مكانه في قلوب الناس ! .

وجانب الحق في كل دين كفيل بأن يطيل بين الأمم بقاءه .. وليس معنى هذا أن نكف عن دفع الكفر وحماية الدين ، بل حسبنا أن نعمل على نشر مبادئنا بالإقناع والحسنى وأن نتوخى الحجة في تأييدها ، فذلك خير وأبقى .. ثم لماذا القهر والكبح والاضطهاد وما إليه بسبيل إذا كان النصر للمذهب الصحيح والبقاء للحق الوضاح ؟ .

ما أجمل المبادىء الإنسانية التي بشرت بها الأديان ودعا إليها رواد النزعات الإنسانية الصادقة من أهل التصوف والفلسفة ودعاة الإصلاح السلمي والمقاومة السلبية من أمثال غاندي وتولستوي . أليس أكرم للنفس أن نبغض الشر ونحب الأشرار لأنهم إخوتنا في الإنسانية قد ضلوا سواء السبيل ، إن ضلالهم أحرى بأن يثير إشفاقنا ورحمتنا من أن يثير غضبنا وحقدنا ، إن إصرار الشرير على الاستمساك بنزعاته الشريره أخلق بأن يثير الرثاء له من أن يثير الرغبة في إبادته واستئصال شأفته ... ولكن هيهات لطبائع البشر الحيوانية أن تستجيب لمثل الإنسانية الحسنى ..

الاضطهاد عدوان على حرية الضمير :

والإنسانية لم تكسب من وراء جهادها الطويل المرير ما هو أعز عليها وأكرم

عندها من حرية الضمير ، لقد عبر العالم إلى هذه الحرية في كل مجالاتها بحيرات من دماء الآلاف من شهدائه ، وأفنى في سبيلها الكثير من جهده ووقته وماله وسائر موارده المادية والروحية معًا . وأصبحت أظهر السمات التي تميز الإنسان من سائر الحيوانات ! لأن جهاد الإنسان التماسًا لتوفير ما تتطلبه حياته من ضرورات القوت وما إليه بسبيل ، ظاهرة تشارك فيها الحيوانات بشتى صنوفها ، والإنسان وحده هو الذي يمكن أن يرتفع عن ضرورات العيش ومطالب الدنيا ويتسامى إلى تحقيق ما تكمل به نفسه من ألوان الحريات .

ولكن هؤلاء المتزمتين من غلاة المتعصبين يتكفلون بمسلكهم الباغي إزاء خصومهم ، بأن يقوضوا هذه الحرية ويضيعوا على الناس ثمرة هذا الجهاد الطويل . فوق أنهم يسيئون بمسلكهم إلى عقائدهم أكثر مما يسيء إليها المارقون .. ! .

على أن ما سنراه في فصول هذا الكتاب من معارك دامية بين المثل العليا والمطالب الدنيا ، قد كتب فيها النصر المؤزر للشهداء في سجل الخالدين ، والاندحار المحقق لأصحاب المطامع والمنافع ، وإن بدا الأمر عند أهل النظرة السطحية العاجلة على غير ما نقول ، إن المبادئ الإنسانية — في مطلع حياتها بوجه خاص — تعيش على أشلاء الشهداء وتروى من دماء أهل الفداء .

توفيق الطويل

الإسكندرية في ربيع الثاني 1366 هـ

مارس 1947 م

الاضطهـــاد الدينـــــي

1 ــ اضطهاد المسيحية

أسباب اضطهادها ـ اضطهاد نيرون للمسيحية ـ حركةالاضطهاد في القرن الثاني ـ دفاع المسيحيين عن دينهم ـ بغض هؤلاء المدافعين للحضارة الرومانية ـ القرن الثالث بين الاضطهاد والتسامح ـ اضطهاد المسيحيين في عهد دقلديانوس ـ انتصار المسيحية على هذا الاضطهاد ـ تبرير اضطهاد الرومان للمسيحية ـ التسامح وبدء نفوذ الكنيسة في روما .

* * *

أسباب ضطهادها :

خرجت السياسة الرومانية على شريعتها في إطلاق الحرية الدينية لرعاياها ، وضنت بالتسامح على الدين المسيحي الجديد منذ ظهوره ، ونهضت لمقاومته واضطهاد أتباعه ، فكان هذا بدء الاضطهاد الديني في أوروبا[1] . ومرجع هذا الاضطهاد إلى أن الأباطرة كانوا لا يعرفون من أمر الدين الجديد إلا أنه امتداد لليهودية ، وكانت

---

(1) انظر بيوري J . B . Bury في كتابه A . History of Freedom of thought وقد استقينا منه كثيرًا من معلوماتنا عن الاضطهاد الذي نزل بالمسيحية في قرونها الأولى .

هذه موضع كراهية من الوثنيين المتسامحين ، على غير ما جرى العرف في إباحة الحرية الدينية للناس ، لأنها أثارت بتعصبها الحقد في القلوب ، ولكن الأباطرة كانوا يقومون بحماية أهلها من ضراوة هذا الحقد ، حتى إذا أحسوا بأنها ستبدو في ثوب جديد من المسيحية ، وتجذب كثرة من الأنصار الجدد ، يشيعون تعصبها ، ويثيرون حقد الناس عليها ، أخذوا في مقاومة تعاليمها واضطهاد أتباعها ، وبدأت حركة الاضطهاد على يد دوميشيان ت 96 Domitian .

اضطهاد نيرون للمسيحية :

ويقال إن تاريخ المسيحية قد سجل أول مظاهر الاضطهاد الدامي في عام 64 من ميلاد المسيح ، في عهد الطاغية الظلوم « نيرون » 68[1] إذ قيل إنه أمر بإحراق روما ليستمتع بمرآها ، ولبثت النار تضطرم في المدينة وتأتي على من فيها ستة أيام كاملة . واتقد الشعب غضبًا خشي الطاغية مغبته ، فألقى تبعة إحراقها على عاتق المسيحيين . فاضطرم الشعب هياجًا وحقدًا ، وكابد المسيحيون من جراء هذا عنتًا شديدًا ؛ لبس بعضهم جلود الوحوش وألقي إلى الكلاب تنهش جسمه ، وطليت أجسام بعضهم بالقار والشمع وغيره مما يقبل الالتهاب ، ثم أشعلت النار فيهم أحياء ..! بل أقيمت حفلة ألعاب في بستان هذا الطاغية ، وكان هؤلاء الضحايا المصابيح التي تضيء هذا الملعب ![2] .

---

(1) B . W . Henderson, The Lite & Principate of the Emperor Nero, London 1903 .

(2) ولكن هذا الرجل قد اشتهر في التاريخ بشذوذه ، وناهيك بمن يقتل زوجه ويغرق سفينة تحمل أمه ، فإذا نجت الأم أمر بها فذبحت .! فمسلكه إزاء المسيحية لا يمثل سياسة الأباطرة حيالها ــ وموقفه من المسيحية في هذه الفترة من الزمن يذكرنا بموقف الحاكم بأمر الله 1021 م في الإسلام ، فقد طارد الذميين من اليهود والنصارى ، وتولاهم بالقتل أو التعذيب ، وهدم كنائسهم وألغى أعيادهم ، وحقر من شأنهم أمام المسلمين ، وأوقع بهم حتى نزح الكثيرون منهم فرارًا ، ولكن مسلكه إزاءهم لا يمثل سياسة الحكام في مصر الفاطمية=

حركة الاضطهاد في القرن الثاني :

وحين تولى الحكم « تراجان» ت 117 كان اعتناق المسيحية جريمة عقابها الإعدام ، ومع أن القوانين كانت لا تقوم بحماية الدين المسيحي ، فإن الأباطرة كانوا يميلون إلى استئصاله من غير أن يريقوا دمًا ..!! وقد قرر « تراجان » ألا يتعقب المسيحيين المستنيرين ، وألا يحفل باتهام أحد لهم باعتناق هذا الدين الجديد ، ما لم يقم صاحب الاتهام الدليل على صحة اتهامه ، فإن أعوزه التدليل على ذلك ، عرض نفسه للعقاب ! .

ولكن الشعب كان تواقًا لاضطهاد الذين الجديد والتنكيل بأتباعه ، ومن هنا كانت الاضطهادات الدامية التي عرفها هذا القرن ــ الثاني لميلاد المسيح ــ وأظهرها ما وقع بين سنتي 161 - 147 وبين سنتي 177 - 181 ، وكان التعصب الديني الأعمى يضطرم في نفوس الناس ، فكان الوثنيون إذا رأوا مسيحيًا لاذوا فرارًا ، مخافة أن يمسهم دنسه ! ومن هنا كان حرمان المسيحيين من دخول الحمامات وغيرها من المحال العامة ! وامتد هذا إلى تعذيبهم في غير رفق ولا رحمة ، فكانوا كثيرًا ما يلقون إلى الوحوش الضارية تفترسهم في مدرج عام ، يضم خصومهم الذين يحضرون للتلهي بمشاهدة هذه المناظر .. ! .

دفاع المسيحيين عن دينهم :

وقد أفضى هذا الاضطهاد البشع إلى اضطلاع المستنيرين من المسيحيين بالدفاع

= نحوهم ، فالمعروف أن الدولة الفاطمية كانت تجري على سياسة التسامح مع الذميين ، وأن الحاكم بأمر الله لم يقصر اضطهاده على الذميين ، بل كثيرًا ما أوقع بالمقربين من رجاله المسلمين ، وهذا فضلاً عن شذوذه الذي أدى به إلى أن يؤله نفسه ويعطل بعض شعائر الإسلام ويسب أبا بكر وعمر وغيرهما من السلف الصالح ، ويذيع ذلك في المساجد .! وإذا كان قد عدل عن ذلك فالمعروف عنه أنه قد عاد في أواخر أيامه إلى إنصاف الذميين وإطلاق الحرية لهم والترفق في معاملتهم .

عن دينهم ، ورد التهم التي توجه إليهم ، فكتبوا للأباطرة والمثقفين « دفاعات » هاجموا فيها المعتقدات الوثنية ، وشادوا فيها بالعقيدة والأخلاق المسيحية . وحسبنا أن نشير إلى ثلاثة من هؤلاء المدافعين أو المحتجين ، لنتبين من هذه الإشارة شيئًا عن موقفهم وروح عصرهم ، وهؤلاء هم القديس جوستين ت 167 م وأثناغوراس وتاتيان المولود في عام 120 م :

فأما أولهم فقد تخلى عن وثنيته واعتنق النصرانية دينًا ، وأخذ يبشر بتعاليمها مخاطبة ومناقشة على ما كان مألوفًا في عهده ، وقصد إلى روما ، وأنشأ بها مدرسة لبث يعلم فيها حتى استشهد مع ستة من تلامذته .. قد روي في أحد كتبه أن فيلسوفًا من الكلبيين كان يناقشه ويجادله في حلقات علنية ، ويحمل عليه على مشهد من الجمهور ، وأنه كان يتوقع أن يبلغ أمره إلى الحاكم ! فلعل هذا الفيلسوف هو الذي سعى به حتى قتل مع تلامذته .. ! .

وقد وضع أثناء مقامه في روما ، في الخمسة عشر عامًا الأخيرة من حياته ، ثلاثة كتب هي خلاصة تفكيره وتعليمه ، وهي احتجاج مرفوع إلى الإمبراطور أنطونان وولديه ـــ وكان أحدهما ماركوس أورليوس ـــ ومجلس الشيوخ والشعب الروماني ، وقد أبان في مطلعه الغرض من كتابته ، وهو إبراء ذمته بإنارة أولي الأمر وتحميلهم تبعة تقتيل المسيحيين ، ثم يحتج على الاضطهاد لأن الحكام يقيمون الدعوى على المسيحيين لمجرد أنهم مسيحيون ، لا لأنهم اقترفوا ذنبًا يعاقب عليه القانون ! وقد وضع الكتاب الثاني بعد الأول بزمن وجيز ، بمناسبة استشهاد فريق من المسيحيين لأجل دينهم ! ويكرر احتجاجه ويسهب في بعض النقط التي أوجز فيها من قبل وفي ثالث كتبه « حوار مع تريفون » يحكي فيه تاريخ ثقافته الفلسفية واعتناقه المسيحية مع عرض الإيمان المسيحي من جديد .

أما القديس أثناغوراس فقد وضع « التماس من الفيلسوف المسيحي أثناغوراس الأثيني لأجل المسيحيين » ورفعه إلى الإمبراطور ماركوس أورليوس وابنه عام 177 م

وطلب فيه الوفاق مع الإمبراطورية ـــ كما حاول ذلك جوستين ـــ ويصرح بأن إغلاظ القول لا يؤدي إلى غير زيادة الحقد ... إلى آخر ما ذهب إليه .

بغض هؤلاء المدافعين للحضارة الرومانية :

وإذا كان هذان القديسان يميلان إلى الترفق في الحديث ، فقد كان القديس « تاتيان » يضطرم بغضًا للحضارة اليونانية ، وقد اعتنق المسيحية وقصد إلى روما وتتلمذ لجوستين ، وبعد استشهاد أستاذه غادر روما إلى الشرق ، وانتقل من السنة إلى الغنوسية ، وأنشأ مدرسة يعلم بها وكتب « خطابه إلى اليونان » أي إلى الأمم غير المسيحية وفيه يقول « عرفت في حداثتي الفلسفات والأسرار الوثنية ، طوفت في كثير من البلدان ، وعلمت مذاهبكم ووقفت على كثير من المؤلفات والمكتشفات ، ولكني اشمأززت مما رأيت في الوثنية من شعائر مخجلة ، ووضعت يدي بين كتب ـــ هي الكتب المقدسة ـــ أقوم من مذاهب اليونان وأسمى من أن تقارن بأباطيلهم ، قرأتها فحملني على الإيمان بها بساطة أسلوبها ووضوح تفسيرها لخلق العالم ، وإنباؤها بالمستقبل ، ومبادؤها العالية وتوحيدها ، كذلك راعتني أخلاق المسيحيين فانفصلت عن حكمتكم وكنت من أنبه ممثليها ! » .

وكما هاجم الوثنية ، حقر من شأن التراث اليوناني في مختلف مجالاته ، فاليونان في نظره لم يبدعوا شيئًا جديدًا في مجال الفن أو الأدب أو الفلسفة ، ولكنهم حاكوا غيرهم ، فأخذوا عن موسى وتجاهلوا فضله ، وليست فلسفتهم إلا نسيجًا من النقائص ، ولا طبهم إلا نوعًا من السحر ، ولا فنهم إلا تمجيدًا للدعارة وإفسادا للنفوس ..! والفلاسفة عنده متهمون في أخلاقهم .. إلخ[1] .

---

(1) تاريخ الفلسفة اليونانية للأستاذ يوسف كرم ص 262 - 263 - 266 - 267 طبعة ثانية .

ومثل هذه الحملة نراها عند ترتليان ت 220 م فهو مع دفاعه عن المسيحية ومهاجمته للاضطهاد ، يحمل على الفلسفة ويغلو في معارضتها ، فيقول : « إنا بريئون من الذين ابتدعوا مسيحية رواقية أو أفلاطونية أو جدلية ، بعد المسيح والإنجيل لسنا بحاجة إلى شيء » ! ويهاجم أخلاق الفلاسفة ، ويصرح بأن البدع المسيحية قد نشأت عن الفلسفة ... إلخ[1] .

ومن هذا نرى أن دفاع هؤلاء المسيحيين عن دينهم في هذه الفترة ، كان يقطر تعصبًا ويتقد حقدًا على الحضارة التي يعيشون في ظلها ، إذ لم يكن من الميسور لهم أن يقبلوا الوثنية ويذعنوا لتعاليمها ، ولهذا صرح المؤرخون من أمثال Bury بأن اضطهاد الأباطرة للمسيحيين ، قد أدت إليه رغبة هؤلاء الأباطرة في الانتصار لمبدأ التسامح العام .. ! .

القرن الثالث بين الاضطهاد والتسامح :

وفي مطلع القرن الثالث لميلاد المسيح ، تزعم كليمان الإسكندري ت 217 م مدرسة الإسكندرية المسيحية ، ولكن الإمبراطور الروماني Septimus Severus قد أصدر في عام 202 م أمرًا باضطهاد المسيحيين ، فتوقف كليمان عن التعليم ، وغادر مصر إلى آسيا الصغري ، وكان من تلامذته أوريجان ت 245 م وقد اعتقل أبوه فيمن اعتقل في غمرة هذا الاضطهاد ، وأراد أن يلحق بأبيه ولكن أمه حالت دون ذلك ، فأرسل إلى أبيه رسالة حارة يغريه فيها بالثبات على مبدئه ، ويحذره من العدول عن رأيه من أجل أسرته ..! فأعدم أبوه وصودرت أملاكه .

ثم تزعم أوريجان المدرسة بعد هذه المحنة بعام ، ولكنه جلا عن الإسكندرية

---

(1) للمؤلف نفسه في تاريخ الفلسفة الأوروبية في العصر الوسيط سنة 1946 ص 17 .

وعاد إليها ثلاث مرات ، وفي المرة الأخيرة حظر عليه أسقف الإسكندرية التعليم « لانحرافه عن العقيدة . وأيد الأسقفان التاليان هذا الحظر مع أنهما كانا من تلاميذه ، فرحل إلى فلسطين ، وفيما هو هناك ، شب اضطهاد هائل في سنة 250 م فاعتقل وعذب عذابًا أليمًا احتمله بشجاعة فائقة ، ولكن صحته تأثرت تأثرًا عميقًا ، فتوفي في مدينة صور ، وكان قد أعلن عن رجوعه عن الآراء التي غيرت السلطة الدينية عليه »[1] .

ومع هذا فالرأي عند كبار المؤرخين أن الكنيسة قد استطاعت في هذا القرن ــ الثالث ــ أن تنظم صفوفها في جو هادئ آمن ، دون أن تلجأ إلى التستر والتخفي ، فتمكنت المجامع الإكليريكية من أن تعقد اجتماعاتها دون أن تخشى تدخلاً من السلطات ، ومع هذا يستند المسيحيون إلى وقوع بعض الاضطهادات العنيفة ، ويخترعون أقاصيص يصورون فيها الاستشهاد الرائع في سبيل الله ! .

اضطهادهم في عهد دقلديانوس :

وفي عصر دقلديانوس ت 305 م Diocletian بل بعد بضع سنوات من حكمه ، قرر رئيس العيافين الذين يقومون بفحص أحشاء الحيوان ليستنبطوا منها أنباء المستقبل ، أن الآلهة تضيق بكفر المسيحيين ، وتأبى من أجل هذا أن تكشف عن أنباء الغيب المحجب ..! وعندئذ نزع دقلديانوس إلى اضطهاد المسيحية وجندلة رجالها ، فأمر بهدم كنائسها وإعدام كتبها المقدسة وآثار آبائها ، وقرر اعتبار المسيحيين مدنسين تسقط حقوقهم المدنية ، وأمر بإلقاء القبض على الكهان وسائر رجال الدين ، وتجريعهم العذاب ألوانًا ، وأصدر في العام التالي أوامره إلى الحكام بتنفيذ هذه التعليمات كلها في مناطقهم فامتلأت السجون بالمسيحيين ، واستشهد

---

(1) المصدر السالف ص 396 ، 274 - 275 .

الكثيرون بعد أن مزقت أجسامهم بالسياط والمخالب الحديدية ، أو أحرقت بالنار أو قطعت أرباعًا ، أو طرحت للوحوش الضارية أو غير هذا من وجوه التعذيب .

وقد أراد هذا الإمبراطور أن يؤله في مصر مسيحيوها ، فأبوا الإذعان لما أراد ، فتولاهم بالسجن والإحراق على نار بطيئة ، وأمعن في تعذيبهم حتى سمى المسيحيون عصره بعصر الشهداء ، وجعلوا بداية حكمه (284 م) بدءًا لتقويمهم ، ولكن محاولته لم يقدر لها النجاح ، لأن الإيمان المسيحي كان قد تغلغل في قلوب الكثيرين ، حتى أضحى الاستشهاد في سبيله ، مدعاة لراحة الضمير واطمئنان النفس ... بل انصرف الأباطرة عن الاهتمام بمقاومة المسيحيين ، إلى الحملات التي كان يشنها البرابرة على أملاكهم ، فأنساهم هذا النذير الذي يهدد وطنهم ، اضطهاد المسيحية والتنكيل بأتباعها ، بل نزع بعض الأباطرة إلى اعتناق المسيحية .. ولهذا تخلوا عن سياسة الاضطهاد ، وصدر مرسوم بالتسامح في عام 311 م وفيه اعتراف بمدى ما فعله الإيمان بنفوس هؤلاء الضالين ..! وقلة جدوى التعذيب المروع معهم ..! وأذن لهم هذا المرسوم باعتناق معتقداتهم ، وأباح لهم حرية الاجتماع دون مخافة أو إزعاج ، على أن تكون قوانين البلاد وحكومتها موضع احترام منهم وتقدير .

انتصار المسيحية على هذا الاضطهاد :

ومن هذا نرى أن اضطهاد المسيحية لم يحقق غايته ، فانتصر الدين الجديد بفضل الشهداء الذين افتدوا بأنفسهم حياته ، وبفضل انصراف الأباطرة إلى صد غارات البرابرة على أملاكهم .. عاشت المسيحية على كره من خصومها ، لأنها تنطوي على « حق » لا يقوى على سحقه اضطهاد ، بل إن الاستناد إلى وصف المؤرخين لهذا الاضطهاد ، يبيح لنا أن نقول إن المسيحية قد انتصرت ، لأن الاضطهاد الذي أنزله بها خصومها ، لم يكن من العنف بحيث يقوى على استئصال شأفتها ، و لم تطل أيامه الحالكة السود ، حتى يتمكن خصومها من إبادتها ، فقد قلنا في مقدمة هذا الكتاب ،

إن الاضطهاد ينجح في تحقيق غايته ، متى طال عهده واشتدت أزمته ، وكان يهدف إلى إحلال عقيدة مكان أخرى ، إذ يبقى بذلك مجال الإيمان ويتحول مجراه ، وهذا أمر ميسور من الناحية السيكولوجية صحيح من الناحية التاريخية .

تبرير اضطهاد الرومان للمسيحية :

ويذهب صفوة المؤرخين إلى تبرير الاضطهاد الذي أنزلته الدولة الرومانية بالمسيحية وأتباعها ، إذ كان الدين الجديد يناصب العقائد الأخرى العداء ، ولا يلين في حكمه عليها ورأيه في أتباعها ، وقد بدا من تصرفات المسيحيين واعترافاتهم ، أنهم على استعداد لإبادة المذاهب كلها ، وتحطيم الحضارة التي يعيشون في ظلها ، متى تهيأت لهم سلطة تمكنهم من تحقيق هذه الغاية ، فكان على الدولة أن تنهض للدفاع عن نفسها ، ومحو هذا الدين الذي يهدد بإثارة الشقاق عند رعاياها ،.وينذر بتحطيم الحضارة التي نعتز بها . ولم يكن أتباع هذا الدين الجديد طلاب حرية دينية ، فالمعروف أن شهداء المسيحية قد راحوا استجابة لنداء ضميرهم ووحي إيمانهم ، ولم يموتوا في سبيل الدفاع عن مبدأ الحرية الدينية .. ! .

التسامح وبدء نفوذ الكنيسة في روما :

تخلى الأباطرة بعد دقلديانوس عن سياسة الاضطهاد ، وصدرت مراسيم التسامح في عام 311 م وفي عام 313 م ـــ أصدر الإمبراطور قسطنطين Constantine مرسوم ميلان ، وأقر فيه مبدأ التسامح ، ووضع المسيحية مع غيرها من الأديان على قدم المساواة ..! ثم اعتنق المسيحية بعد عشر سنوات من هذا المرسوم ، فبدأ بهذا عهد جديد ، تحررت فيه المسيحية من قيود الاضطهاد ، وتأهب أتباعها لاضطهاد خصومهم على ما ستعرف بعد حين .

وقد نقل قسطنطين عاصمة ملكه إلى بيزنطة ــ التي سميت باسمه بعد ذلك ــ فتطلعت روما إلى رئيسها الديني الأعلى ، وطمعت في أن يأخذ مكان عاهلها الإمبراطور ، وأخذت الكنيسة منذ ذلك العهد تستحوذ على سلطان واسع النطاق ممدود الرحاب ، وعكف الناس على مزاولة العبادات التي ترتضيها اتقاء لعذاب الجحيم ، وطمعًا في نعيم الجنة المقيم ، ومكن لهذا السلطان ضعف الحكومة القائمة واجتياح البرابرة للأقاليم الرومانية ، مما مكن الكنيسة من التخلص من رقابة الحكومة وتدخلها في شئونها ، وجاهر الأساقفة بإعلاء كلمة رئيسهم الديني على سلطة الملك ، بحجة أن البابا مسئول أمام الله عن أعمال الملوك والناس أجمعين .

وكان المسيحيون الغربيون يعتقدون أن كنيسة روما قد انفردت من بين سائر الكنائس ، بأن منشئها رسول ــ هو الرسول بطرس ــ أعلى الرسل مكانة في نظر المسيح وأتباعه ــ وكانت روما عاصمة الإمبراطورية الرومانية ، ومن هنا نشأت أسبقية كنيستها على غيرها من الكنائس في غربي أوربا ، واستقرت سيادتها بمنشور أذاعه فلانتين الثالث ــ بتحريض البابا ليو الأكبر ت 471 م وأصبحت كنيسة روما مركز السلطة الدينية ، ومصدر التيارات الموجهة في القرون التالية ، وسنرى الدور الذي قامت به في اضطهاد المتهمين بالمروق والإلحاد .

وقد التمس بعض رجال الكهنوت لأنفسهم سلطة تيسر لهم أسباب الاضطهاد ، ونزعوا ــ كما سنعرف بعد ــ إلى استغلال السلطات المدنية في تحقيق مقصدهم ، فطالبوا بفرض نوع التربية التي يؤخذ بها التلامذة في مدارسهم ، ومصادرة الكتب التي لا تساير نزعاتهم ، وإقصاء المعلمين المارقين عن وظائفهم ، ونفي المفكرين الذين يخطئهم التوفيق في إرضاء رجال الكهنوت ... بل نزعوا إلى التنكيل بالمارقين ليكونوا عظة لكل من ضل سواء السبيل ... وكانت عقوبة الإعدام الآثمة ــ كما سنعرف بعد قليل ...

تعقيـــب :

نرى مما أسلفنا ، أن المسيحية قد لقيت في عصرها الأول عنتًا شديدًا ، فتكل

بأتباعها بعض الأباطرة وغيرهم من سواد الناس ، على غير ما جرى العرف في هذه الآونة ، وكان هذا الاضطهاد يهدف إلى الحيلولة دون انتشار هذا الدين الجديد ، الذي ظنوه امتدادًا لليهودية الحقود البغيضة إلى نفوسهم ! والتي لاحظوا عند أتباعها تعصبًا لمبادئها ، وبغضًا للحضارة الرومانية ، وسخطًا على معتقداتها ، واحتقارًا لشعائر أهلها .

ولكن المسيحية قد بقيت على كره من خصومها ، لأن الاضطهاد لم تطل أيامه السود ، حتى يستأصل أتباعها من الوجود ، ويحول دون اعتناق الأجيال الجديدة لمبادئها ، ولهذا انتصرت المسيحية على خصومها وأنوفهم في الرغام ، وأخذ الأباطرة أنفسهم يعتنقونها دينًا ، فتوطد مركزها وأخذ نفوذها في الاستقرار والانبساط .

وقد قلنا إن شوكة الرئيس الديني الأعلى ـــ البابا فيما بعد ـــ قد أخذت تعظم في مطلع القرن الرابع ، وأن اعتناق قسطنطين للمسيحية ، كان بدء عهد جديد ، تحولت فيه دفة الاضطهاد ، إذ أخذ المسيحيون ينزلونه بخصومهم ، وقد كانوا إلى الأمس القريب ضحاياه ..! فلنقف عند هذا وقفة قصيرة ، نفصل فيها ما أجملناه :

* * *

2 ـ الاضطهاد في المسيحية

أثر الاضطهاد الإسرائيلي في الاضطهاد المسيحي ـ نزوع الآباء الأولين إلى التسامح ـ بدء الاضطهاد في المسيحية ـ الشقاق في داخل الكنيسة ـ اضطهاد قسطنطين للملحدين ـ من آثار الاضطهاد في القرن الرابع ـ اضطهاد تيودوسيوس للملحدين ـ من عوامل نمو الاضطهاد ـ بدء الإعدام في المسيحية ـ موقف الأكليروس من إعدام الملحدين ـ القديس أوغسطين ومكانته ـ انتصاره للاضطهاد ـ عقيدة الخلاص والاضطهاد ـ اضطهاد المسيحيين بعضهم لبعض في مصر ـ الإذعان للكثلكة وانتقاء الاضطهاد ـ عودة الكنيسة إلى مقاومة الروح الجديدة ـ مذبحة الأليجبين ـ تعقيب .

* * *

أثر الاضطهاد الإسرائيلي في الاضطهاد المسيحي :

استقام أمر الاضطهاد في شريعة بني إسرائيل ، كما تشهد مذبحة كنعان ومجزرة كهنة بعل Baal وغيرها من وجوه الاضطهاد ، بل لقد كانت مراسيم موسى أول دستور للاضطهاد الديني ظهر بين البشر ، وقد نصت هذه المراسيم على أن عبادة الأوثان ليست خطيئة فحسب ، بل جريمة لا يمكن التكفير عنها بغير إهراق الدم ! .

ويكاد ينعقد الرأي عند جمهرة المؤرخين على أن هذه السياسة قد أثرت تأثيرًا ملحوظًا في الاضطهاد الديني عند المسيحيين ، فالأستاذ « بيوري » يصرح بأن بعض المقطوعات التي تنطوي على التعصب الممقوت في « العهد القديم » — أي التوراة قد تسللت إلى « العهد الجديد » وكانت زادًا لأنصار الاضطهاد في العالم المسيحي بعد ذلك — وأيد « بايل » Bayle « ورينان » Renan القول بتأثر الاضطهاد في العالم المسيحي ، بسياسة الاضطهاد عند اليهود — فيما يقول الأستاذ ليكي[1] Lecky — وإن كان من الحق أن نلاحظ مع « تايلور » Taylor أن المسيح حين رفض الإذن لرسله بإحراق الملحدين ، قد دل بهذا على نفوره من روح التعصب البغيض .

نزوع الآباء الأولين إلى التسامح :

أما عن آباء الكنيسة فقد تشعبت وجهات نظرهم وفقًا للظروف التي أحاطت بهم ، فناهضوا الاضطهاد ونددوا بالتعصب ، يوم كانت السلطة في يد خصومهم ممن لا يدينون بدينهم ، فلما تمكن نفوذ الكنيسة وتهيأت السلطة لرجالها ، وأصبح في مقدورهم أن يتحكموا في خصومهم ، تولاهم التزمت ونزعوا إلى الاضطهاد فيما يقول الكثيرون من المؤرخين . كان « ترتليان » Tertullian ت 225 م أثناء الاضطهاد الوثني ، كما كان « هيلار » Hilar (من أهل بواتييه) أثناء الاضطهاد الذي نزل بأتباع آريوس ، من أعظم المحامين الذين أبلوا في الدفاع عن مبدأ التسامح أحسن بلاء . وقد كتب « ترتليان » « دفاعًا » وجهه إلى حكام الولايات الرومانية ، وهاجم فيه مشروعية الاضطهاد ، واحتج على قسوة الإجراءات المتخذة ضد

---

(1) هو W . E . H . Lecky في كتابه :
Hist . of the Rise and Influence of the Spirit of Rationalism in Europe وقد استقينا بعض معلوماتنا عن اضطهاد المسيحيين لخصومهم من الفصل الأخير في الجزء الأول منه وعنوانه « بوادر الاضطهاد » والفصل الأول من الجزء الثاني فيه « عن تاريخ التعصب » .

المسيحيين ، وراح يتحدى قائلا : (إننا نتكاثر إذ تحصدوننا ، وإن دم المسيحيين لبذرة ، وإن لكم فيما تأخذونه علينا من عناء لعبرة ، فمن ذا الذي يشهده ولا يتزعزع ، ثم لا يبحث عن السر فيه ، ومن ذا الذي يبحث فلا ينضم إلينا ، ومن ذا الذي ينضم إلينا فلا يتوق للعذاب وللموت ، في سبيل الحصول على النعمة الإلهية كاملة والنمو شاملاً ؟) . ومن هذا الدفاع ، وما تضمنته من التحدي الملحوظ ، ندرك سر دعوته إلى التسامح ، وحملته على الاضطهاد ، وموقفه هذا لم يمنع من أن يضع كتابًا « إلى الأمم » يهاجم فيه الوثنية ، إلى جانب كتبه التي رد فيها على المبتدعة من المسيحيين[1] وإلى جانبه عرف آباء آخرون وإن كانت آثارهم في مجال هذا الدفاع أخف حماسة وقوة .

وفي أثناء الاضطهاد الذي أنزله بالمسيحيين « دقلديانوس » ، اعتنق المسيحية « لاكتانتيوس » Lactantius وأكد في عهد قسطنطين جريمة الاضطهاد ، ولكن تأثير كتاباته كان ضئيلاً ، بل لقد عانى هو نفسه الاضطهاد ، إذ اتهم بأنه ينكر شخصية الروح القدس ، فأدان كتاباته مجلس تولى البابا جلاسيوس[2] Glasius رياسته .

أما غير هؤلاء من الآباء ، فقد كانوا إذا نزعوا إلى الكبح ، تحاموا الإسراف وكرهوا أن يكون الإعدام عقوبة للهرطقة (الإلحاد) ، ونفروا من هذا كل النفور ، وسنعود إلى هذا عند الحديث على « موقف الأكليروس من إعدام الملحدين » .

وبهذا امتازت الأرثوذكسية المسيحية عن غيرها من المذاهب التي زاول أتباعها اضطهاد خصومهم دون رفق ولا رحمة ، حتى قيل إن أكثر من ثمانين كاثوليكيًا — من رجال الدين المسيحي — قد سجنوا في عهد الإمبراطور Valens — الذي اعتنق

---

(1) يوسف كرم في تاريخ الفلسفة الأوروبية في العصر الوسيط ص 16 (طبعة أولى) .
(2) تولى عرش البابوية من 492 - 496 م .

مذهب آريوس ــ ثم أحرقوا غدرًا ... ! وفي الحق لقد كان موقف الآباء الأولين في جملته ، متماشيا مع روح المسيحية التي نزلت مبشرة بالحب في أسمى صورة ، داعية للأخوة بين الناس في أكمل مراتبها ، على ما أشرنا في مقدمة الكتاب .

بدء الاضطهاد في المسيحية :

قلنا إن المتزمتين لا يملكون التنكيل بخصومهم ، متى كانت السلطة تعوزهم ، والمظنون أن المسيحية قد أقرت سلطة رؤسائها من رجال الكهنوت ، إذ ورد في الإنجيل « أعطيك مفاتيح ملكوت السموات ، فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطًا في السموات ، وكل ما تحله على الأرض يكون محلولاً في السموات » وتأكد في نفس الإنجيل هذا المعنى ، إذ جاء فيه : (الحق أقول لكم ، كل ما تربطونه على الأرض يكون مربوطًا في السماء ، وكل ما تحلونه على الأرض يكون محلولاً في السماء)[1] .

وهذا بالإضافة إلى ما تهيأ لرجال الكهنوت من سلطان زمني في بعض مراحل التاريخ ــ كما سنعرف بعد .

ومنذ اللحظة التي ظفرت فيها الكنيسة بسلطة مدنية ــ في عهد قسطنطين ــ دخل مبدأ الكبح العام ، واستمر عشرة قرون شداد ، رسف فيها العقل والقلب في الأغلال ، وعانى من قسوته اليهود وعباد الأوثان كثيرًا ، فأما اليهود فقد أشرنا إلى أنهم كانوا مثار الكراهية والحقد في الدولة الرومانية ، تزيد من هذا الشعور حركة « تهويد » قوية ، تهدف إلى رد الناس عن المسيحية ، ومقاومة الذين يرتدون عن

---

(1) إنجيل متى ، الأصحاح السادس عشر في الآية التاسعة عشرة ، ثم الأصحاح الثامن عشر الآية الثامنة عشرة في نفس الإنجيل .

اليهودية بالقوة والعنف ، وقد حاول قسطنطين أن يضع حدًا لشرورهم ، فأصدر قانونًا يقضي بإحراق كل يهودي يلقي على كل من اعتنق المسيحية حجرًا ، وعقاب كل مسيحي تهود ــ أي اعتنق اليهودية ــ ثم عدل العقاب إلى مصادرة الأملاك ، فإن تزوج يهودي بمسيحية أعدم .

الشقاق في داخل الكنيسة :

وقد نبت الشقاق في داخل الكنيسة ، وتشعبت وجهات النظر بين المسيحيين أنفسهم منذ عصور المسيحية الأولى ، وكان طبيعيًا أن تتصدى الكنيسة للدفاع عن تعاليمها ، وأن تعقد المجامع الدينية للنظر في كل رأي مخالف ، وعقاب كل من دان به ، وكان استخدام المنطق ومقارعة الحجة بالحجة ، هو السلاح الذي شاع استخدامه في هذا النزاع ، أما العقوبات التي كانت تفرضها الكنيسة على دعاة الآراء الشاذة والمذاهب الهدامة الجامحة ، فقد كانت محتملة لم ترتفع قط إلى مرتبة الإعدام ، ومن دلالات هذا ظهور آريوس ت 336 في الإسكندرية ، واتهامه بالإلحاد لأنه أنكر ــ على غير ما جرى العرف الكنسي ــ ألوهية المسيح ، وزعم أنه لا يساوي الآب في جوهره وطبيعته ، وأنه خلق بإرادة الآب فكان حادثًا غير قديم ! فنظمت الكنيسة مجمعًا حضره من أساقفة مصر وليبيا نحو مائة أسقف ! فلما ركب آريوس رأسه وأصر على رأيه ، أدانه المجمع مع أتباعه ، وأعلن الإسكندر ــ أسقف الإسكندرية ــ هذا الحكم إلى جميع الأساقفة .

ولما فشى مذهب آريوس وكثر أتباعه ، أمر قسطنطين في عام 325 م بعقد مجمع ديني في نيقية ، ضم نيفا وثلاثمائة أسقف من آسيا وأفريقيا وأوربا ، فحكم بوحدة الجوهر عند الآب والابن معًا ، وإدانة آريوس وإحراق كتاباته وتحريم اقتنائها ! ومن رأى من الأساقفة الانتصار لمذهب آريوس ، أمر قسطنطين بخلعه ونفيه ، وإن كان قسطنطين قد عاد إلى الرضا عن آريوس وأتباعه ! ولبث آريوس على دينه حتى

مات ، ولم يمت المذهب بموته ، بل نما واجتذب الكثيرين من الأتباع ، فعقد من أجله الكثير من المجامع الدينية ، كان قوامها الإقناع بالحجة والمنطق .

ومن قارن موقف الكنيسة من هذه الحركة ، بموقفها من البروتستانتية بعد ذلك ، أو من الشيع الدينية التي خالفتها الرأي ـــ من أمثال شيعة الجانسنست[1] والكاتاريين والألبيجيين ـــ وسنعرض للحديث عنها بعد ، من قارن بين هذين الموقفين ، أدرك التطور الملحوظ الذي اعترى مسلك الكنيسة ، وحول اتجاهها الرحيم ، شطر الكبح والاضطهاد والتنكيل والإعدام ! .

اضطهاد قسطنطين للمسيحية :

أما عن سياسة قسطنطين حيال الوثنيين فمشوبة بالغموض ، لأنه في السنوات الأولى من حكمه ، حين كان سلطان المسيحية لا يزال قلقًا ، وحين كان يشاطره الحكم ليكينيوس Licinius الوثني ، أبدى قسطنطين تسامحًا ملحوظًا حيال معتنقي الخرافات القديمة ، ولكن بعض قوانينه أثارت الفزع في نفوس الوثنيين ، فحاول أن يرد إليهم طمأنينة نفوسهم ، فأعلن في وضوح الإذن بعبادة الأوثان ! ولما توطدت قدمه ، وسحق خصمه ليكينيوس عام 324 م ، غير اتجاه سياسته ، فأصدر أمره إلى الحكام من مرءوسيه ، بالكف عن إظهار الولاء للأوثان ، ثم وضع حكومات الأقاليم في أيد مسيحية ، ومضى عام 330 إلى أبعد من ذلك ، فمنع عبادة الأوثان

---

(1) هي شيعة دينية تنسب إلى الكاهن الكاثوليكي Cornelius Jansen تدين بعقائد مستنبطة من مذهب القديس أوغسطين ـــ 340 م فتناهض العقيدة الكنسية الشائعة عن حرية الإرادة ، وترى سلب الحرية الباطنية عن البشر ، وإذعانهم لرحمة الله ، والجسم عندهم هو الذي يغري بالشر ويدفع إليه ، ولو شاء الله أن يرحم الناس لوقاهم شره ! فغضبت الكنيسة لهذا لأن الشر مرجعه عندها إلى اختيار الإنسان ، اقرأ مادة Jansenism في دائرة معارف الدين والأخلاق ومصار هذه المادة .

فيما يقرر بعض المؤرخين الدينيين ، وإذا كان المرسوم الذي قضى بهذا التحريم لم يصل إلينا ، فقد أكد صدوره الكثيرون من المؤرخين الموثوق بهم .

على أن قسطنطين وإن كان قد عادى الوثنيين ، فقد خاف كثرتهم وتدرج في مقاومة عقائدهم ، ومن هنا كان استمرار الوثنيين في عباداتهم إلى عهد تيودوسيوس ، مع أن قسطنطين قد حرم مزاولة هذه العبادات في كل صورها .

من آثار الاضطهاد في القرن الرابع :

وظهرت في القرنين الرابع والخامس في الكنيسة المسيحية طائفة دينية هي الدوناتست Donatist شايعوا الاضطهاد وأكبروا من شأن الشهداء الذين اشتدوا في معاملة المارقين ، وقد أبان نسطوريوس Nestorius[1] بطريق القسطنطينية عن مبدئه في الاضطهاد ، حين قال للإمبراطور : أعطني الدنيا وقد تطهرت من الملحدين ، أمنحك نعيم الجنة المقيم .. ! .

أما عن الهراطقة ممن أسلفنا ذكرهم من الدوناتست وأتباع آريوس ، فقد قضت القوانين بهدم كنائسهم ومصادرة اجتماعاتهم ، ونفي كهانهم ، وإحراق كتاباتهم ، فمن أخفى ما كتب كان الإعدام مصيره ، وقد صدرت ضد بعض الدوناتست أحكام بالإعدام ، ولكنها ألغيت قبل تنفيذها ، وكل دم أريق في هذه الفترة كان مرد إراقته إلى ما بدا من تطرف مسرف عند بعض أتباع هذه الطائفة ممن انساقوا وراء المبادئ الهدامة التي لا تتماشى مع أمن الدولة .

---

(1) كان بطريقًا من 428 إلى أن أدين وخلعه مجلس أفسوس عام 431 وهو الذي قرر ألوهية المسيح وإنسانيته معًا ، ولكنه أنكر وحدتهما في شخصية واحدة شاعرة بنفسها ، ومن ثم انشطرت الوحدة إلى الثنينية .

اضطهاد تيودوسيوس للملحدين :

ويظهر أن أول قانون نص على الإعدام عقوبة للملحدين ، كان في دستور تيودوسيوس ت 395 م الذي لم يطبق إلا على أتباع المذهب المانوي ، وهو أول قانون نصادف فيه لفظ « مفتشي الإيمان أو رجال محكمة التفتيش .. ! » وضع تيودوسيوس أواخر القرن الرابع قوانين صارمة تتضمن ستة وستين بندًا لمقاومة الهرطقة ، ووضع إلى جانبها بنودًا أخرى لاستئصال الوثنية ومناهضة الديانة اليهودية والارتداد عن الدين ومزاولة السحر ونحو ذلك . وكان هذا الدستور يقضي بإقصاء الوثنيين عن وظائفهم في الدولة ، وتحريم طقوسهم السرية ، وحظر عبادتهم جميعًا ، وهدم معابدهم ، وتحطيم صورهم ، وقد كان الكثيرون من أهل الريف يجهلون أمر المسيحية إلى ذلك العهد ! ومرد جهلهم إلى قلة المواصلات وفشو الجهالة وانقطاع الاتصال بين الريف والحضر ، ومن أجل هذا هالهم هذا القانون الذي صادر عباداتهم وحطم معابدهم ، على أن ليبانيوس Libanius كان واسع الصدر رحب الأفق ، فدافع عن قضية الفلاح في هذا الصدد دفاعًا مجيدًا ، لأن المعبد كان عند هذا الفلاح رمزًا للإله الذي يتفانى في عبادته ، كان مصدر السلوى والعزاء عما يعانيه من متاعب ويكابده من محن ، كان أقدس متعة في حياته ، فإن حطمته فقد قضيت على أعز ما يملك في دنياه ، وجرحت موطن الاعتزاز في نفسه ، ومزقت صلات القربى بالأعزاء من موتاه ، وأتيت على مهبط الإيمان الذي يعمر قلبه ... ولكن على غير جدوى كان دفاعه المجيد ! فهدمت في عهد تيودوسيوس الكبير جميع معابدهم ، وصودرت كل عبادات الوثنيين والملحدين ، ومنعت مزاولتها منعًا باتًا ..

من عوامل نمو الاضطهاد :

وفي هذه المرحلة من الزمن ــ في النصف الثاني من القرن الرابع لميلاد المسيح ــ

ظهر عاملان كان لهما خطرهما الملحوظ في تطور الاضطهاد وإقرار سياسته ، أولهما أن الكثير من مجالس الأكليروس قد طلب إلى السلطات المدنية معاقبة الهراطقة أو نفيهم ، وكان لهذه القرارات أثرها الملحوظ في مسلك الحكومة إزاءهم ، وثانيهما استقرار نظام الرهبنة ونموه ، وبهذا النظام ظهرت مجموعة من الرجال الأفذاذ في إنكار الذات والاعتصام بالشجاعة المجيدة ، والتزام التزمت الصارم والتعصب الجازم الخالي من كل رحمة ، أحبوا العزلة فنفروا من روابط الزواج وعلاقات الرحم والقربى والصداقة ونحوها ـــ وإن كان بندكت ت 743 قد قاوم فكرة العزلة في نظام رهبنته بعد ـــ ورفضوا حياة الترف وزهدوا في اللذات ، وكلفوا ببساطة العيش فأحبوا الفاقة والوحدة ، وراحوا يتجولون في الصحارى مع الحيوانات المتوحشة نصف عرايا يكادون يموتون جوعًا .. ، كاد الرهبان القدامى أن يخمدوا في أنفسهم كل عاطفة طبيعية ، وأن يبرءوا من مغريات الثروة ومفاتن الجاه ، ويتجردوا من نزعات الطمع والرغبة في نعيم الدنيا ، وكانت كل البواعث التي تهيمن على مشاعر الناس ، مجرد ألفاظ خلو من كل معنى يدعوهم لاحترامها ؛ ولم يكن من الميسور لمثل هؤلاء أن يتخلوا عن مبادئهم لقاء رشوة أو خوفًا من عقاب أو طمعًا في ثواب ؛ إنهم يقبلون على الزهد في اللذات راضين مغتبطين ، ويتولون أجسامهم بألوان العذاب تكفيرًا عما توهموه من ذنوب ..! إنهم يتفانون في صيانة دينهم وحماية مبادئهم وترقية كنيستهم .. كان هذا هو الهوى الوحيد الذي بقي لهم بعد أن قضوا على كل ما ينطوي عليه الإنسان من أهواء وميول ورغبات ..! لم يكن هناك عناء لم يكونوا على استعداد لاحتماله أو ابتلاء أنفسهم به ! وقد خلف لنا مؤرخو الوثنيين صورًا صادقة لوصف حماستهم البالغة في تحطيم الأوثان ، ومقاومة العبادات التي لا تساير دينهم ، وكثيرًا ما كانوا يستشهدون في نزاعهم مع الملحدين ، حتى خفت عبادة الأوثان وقل أتباعها .. ! .

بدء الإعدام في المسيحية :

قلنا إن أول قانون نص على الإعدام عقوبة للملحدين ، كان قانون

تيودوسيوس ، ولعل أول تطبيق لهذا القانون كان في عام 385 م حين أدين الملحد الأسباني بريسكليان Prescillian على ما سنعرف بعد قليل ، وأعدم بأمر الإمبراطور ماكسيموس ، وكان طريفًا أن يوجه تمستيوس Themistius — وهو لا يدين بالمسيحية — خطابا إلى الإمبراطور Valens يطالبه فيه بإلغاء القوانين التي أصدرها لمقاومة المسيحيين الذين يراهم على خلاف معه ، وصرح في خطابه بأن الحكومات لا سلطان لها على قلوب الناس ومعتقداتهم ، وأن القمع قد يفضي إلى الاعتراف القائم على الرياء والنفاق ، وأن من واجب الحكومة ، أن تيسر لكل إنسان اعتناق الدين الذي يشاء ...

موقف الإكليروس من إعدام الملحدين :

شارك رجال الأكليروس في إعدام بريسكليان وأتباعه لأول مرة ، بتحريض الكاهنين أورزاتيوس Ursatius وإيثاكوس Ithacus ، ومع أن القديس أمبروز كان يضطرم حماسة لقمع عبادة اليهود والوثنيين ، فقد احتج على ارتكاب هذه الجريمة ، وشهر بها القديس مارتن في مرارة وحدة واعتبرها جرمًا فاحشًا ، وأبى الاتصال بالكهنة الذين شاركوا في ارتكاب هذا الجرم ! وطالب القديس كرايسوستوم Chrysostom بأن تباح للملحدين حرية الكلام وعقد الاجتماعات ، وصرح بأن إعدام الملحد ، إقرار بارتكاب جريمة لا سبيل إلى غفرانها أو التكفير عنها ! .

وبمثل هذا الحنق كان الكثيرون من القديسين يهاجمون فكرة الإعدام ومشاركة رجال الأكليروس في تنفيذها ، ولم يكن هذا غريبًا ، لأن العرف الذي أقره في الكنيسة ترتليان ولاكتانتيوس كان يحرم على المسيحي أن يقدم تحت أي ظرف على قتل رفيق له باتهام يؤدي إلى إعدامه ، ويحظر عليه أن يشارك — قاضيًا أو جنديًا أو جلادًا — في قضية من هذا النوع ! .

وقد أشرنا إلى هذا عند الكلام على « نزوع الآباء الأولين إلى التسامح » وقلنا

إنهم هاجموا الاضطهاد ، ونفروا من مزاولته ، وسايروا دينهم السمح في دعوته للحب وتبشيره بالسلام .

كان هذا مسلك الكنيسة يوم أن كانت السلطة تعوزها ، ويوم كان رجالها يخشون أن يكونوا موضعًا للاضطهاد ، وأن يعانوا من أمره ما لا طاقة لهم به ، فلما اكتملت السلطة للكنيسة ، وأصبحت ذات حول وطول ، شرع المتزمتون من رجالها في تغيير سياستها بصدد عامة الناس أول الأمر ، ثم بصدد رجال الكهنوت بعد ذلك ، على أن هذا التغير في سياستها ، لم يمنع رجال الأكليروس من أن يتوسلوا إلى القضاة ، كلما قدموا إليهم مذنبًا ، أن يتجنبوا الحكم عليه بالإعدام ، أو بتر عضو من أعضائه ، لأنهم إن أغفلوا هذا التوسل ، أذنبوا وعرضوا أنفسهم لملامة الهيئة الإكليركية !! وكانت هذه القاعدة في أول أمرها ، تعبيرًا عن دعوة المسيحية لحب البشر ، ونشر الصفاء والوئام بين الناس ، والرغبة في إنقاذ حياة المتهمين ، ولكنها فسدت آخر الأمر ، وأصبحت رياء قبيحًا ونفاقًا ممقوتًا ، فقرر « بونيفاس الثامن » أن يشفع الكاهن للمذنب عند تسليمه إلى السلطة الزمنية ، وإن كان على يقين بأن شفاعته لن تجاب ..! واستمر هذا اللون من التوسل الشكلي أمام محاكم التفتيش ، وإن كان بعض الكهان أنفسهم ، قد أدانوا الهرطقة وقرروا الإعدام عقابًا لها ..! وقرر إنوسنت الثامن حرمان كل حاكم يغير حكمهم أو يتباطأ في تنفيذه أكثر من ستة أيام ..! .

القديس أوغسطين ومكانته :

ولكن الكاتب الذي قدر له أن يمكن لنظام الاضطهاد ، ويزود أنصاره المتأخرين بالحجج المؤيدة للقمع والكبح ، كان القديس أوغسطين ت 430 الذي أسكت اسمه كل نزاع إلى الرحمة زمانًا طويلاً .

كانت كتاباته شعار كل من نزع إلى الاضطهاد ، وبها برر الذين زاولوه مسلكهم إزاء من أنكر عليهم ذلك . وعلى هذا القديس تقع تبعة الاضطهاد أكثر

مما تقع على عاتق من أنشأ محكمة التفتيش !

وقد انحدر هذا القديس عن أب من أشراف الوثنيين ، وأم من أشد الناس تمسكًا بالنصرانية ، ودان بالمانوية فترة ارتد بعدها إلى اعتناق المسيحية ، كما يقول في كتابه « الاعترافات »[1] وقد أضحى بعد التنصر مثالاً طيبًا لغيره من المتدينين ، وكان رقيق الحس تقي النفس ، كما كان لاهوتيًا ممتازًا وفيلسوفًا غلابًا في مناقشة الوثنيين ومن إليهم من الملحدين . وكانت حياته مزاجًا غريبًا من أعظم العوامل المتباينة في تطور هذا العقل الفريد . إن أهواء شبابه الجامح ، وغلوه في الإلحاد الذي زاوله مدة طويلة ، لم يحجب بهاء عقله الممتاز الذي كان يستوعب كل ميادين المعرفة ، إن عبقريته ومعرفته بالرجال والكتب ، وشذا القدسية التي خلعت على كل كتاباته المتأخرة سحرًا ، وغير هذا من مميزاته ، قد جعله سيد العقل في الكنيسة كلها ! إبان عصره ، فطبع الكنيسة بعده بطابع روحه الغلاب ، وجعل رسالته أن يرسم لاهوت الكنيسة في دقة ، وأن يهذب مبادئها ويضم مختلف أجزائها إلى سلطة واحدة وكل متناسب الأجزاء .

كان هذا القديس الممتاز ، أقوى من عرفت الكنيسة من المدافعين عن العقائد التي أدت إلى مبدأ الاضطهاد ، وإذا كان قد نفر من النزوع إلى الاضطهاد حينًا من الزمن ، فسرعان ما أسلمته إليه بالضرورة مبادئه ، وأضحى ممثل اللاهوت المتعسف المتزمت الذي يقف عند حرفية النصوص لا يتجاوزها ، وفي آثاره اللاهوتية فيض من النصوص يشهد بما نقول .

انتصار القديس أوغسطين للاضطهاد :

صاغ القديس أوغسطين مبدأ الاضطهاد لهداية الأجيال التالية ، وأقامه على

---

(1) انظر تفصيل هذا في كتاب تاريخ الفلسفة الأوربية في العصر الوسيط للأستاذ يوسف كرم ص 19 وما بعدها ــ طبعة أولى ، وانظر فيما يلي ذلك كتاب Lecky بوجه خاص وبيوري Bury وهوايت A.D.White بوجه عام .

أساس من الكتاب المقدس ، فاستند إلى كلمات فاه بها المسيح في مثل أمثاله التي كان يسوقها لحوارييه إذ قال ما معناه : أجبروهم على اعتناق دينكم Compelle Intrare .. وتماشيا مع هذا المنطق ، سلم أوغسطين بمعاقبة الملحد بالنفي والجلد وفرض الغرامات ، ووضع للكنيسة دستورًا تلتزمه إزاء كل حركة إلحادية ، فمضت الكنيسة بعد هذا جاهدة في تحقيق هذا الدستور ..! .

وكم كان غريبًا مصير هذا الرجل ! إن معاصريه قد فقدوا بعد عدة قرون من الزمن ، كل ما تهيأ لهم من سطوة ونفوذ ، إن أسماءهم لا تزال حية ، وكتبهم يتداولها العلماء والرهبان ، ولكن تغير مناهج التفكير والمشاعر ، قد أقصاهم عن مراكز الاهتمام عند الناس ، أما أوغسطين فقد تخطت به عبقريته الزمان والمكان ، ومكنت لكتاباته أن تعيش في قلوب الناس حية تسيطر على حركاتهم وتهيمن على توجيههم ، وتهذب أجمل وأسوأ العواطف في طبيعتهم .

ومن كتابات هذا القديس في البر والتقوى والقضاء والقدر والأعمال الخيرية وغيرها ، استمد البروتستانت أعظم أسلحتهم قوة وصلابة ، وفي تزمته البادي في نظرياته ، وفي سمو سطوته وعبقريته ، عرف المذهب الكاثوليكي أخص مميزاته ، وبهذا وجد الكاثوليك والبرتستانت في كتاباته ، أصدق تعبير عن عواطفهم الدينية . وقد أخفى المتزمتون من أتباعهما تعصبهم وراء اسم هذا القديس العظيم ! .

وقد استمد أوغسطين من عقيدة الخلاص ، بعض حججه التي دافع بها عن مبدأ الاضطهاد ، واستقى بعضها الآخر من « العهد القديم » ومن رأيه أن من دلالات الرفق وشواهد الرحمة ، أن يعاقب الملحدون إذا كان هذا العقاب ينقذهم من العذاب الأبدي ، الذي ينتظره المرتدون عن دينهم القويم ، إن الهرطقة توصف في الكتاب المقدس ، وكأنها نوع من الفسق والمروق وعبادة الأوثان ، إنها أسوأ أنواع القتل ، لأنها قتل للنفوس ! إنها نوع من التجديف Blasphemy ومن أجل هذا اقتضت العدالة أن ينال أهلها ما يستحقون من عقاب ، وإذا كان « العهد الجديد » لا يقدم

مثالاً لرسول استخدم القوة والعنف في نشر الدين ، فقد كان هذا لأن عصرهم قد خلا من وجود أمير يعتنق المسيحية ، ولكن ألم يذبح اليشع Elijah بيديه أنبياء بعل ؟ ألم يحطم حزقيال Hazkial ويوشع Josiah وملك نينفه ونبختنصر Nebuchadnezzar بعد ارتداده ، ألم يحطم هؤلاء بالقوة عبادة الأوثان في أقاليمهم ؟ وألم يكونوا موضع ثناء محمود من أجل ما انطووا عليه من وجوه التقوى ؟

على أن من الإنصاف أن نقول إن أوغسطين وإن كان قد ذاد عن القوانين التي استخدمت في مناهضة « الدوناتست » ورغم أنه صرح بأن الهرطقة أبشع الخطايا ، ومن ثم وجب عقاب أهلها ، فقد لبث في تناقض ملحوظ ، إذ بذل جهدًا كبيرًا لكي يحول دون أن تكون العقوبة صارمة ترتفع إلى مرتبة الإعدام وقد حذر ، بل أمر أصحاب السلطة بأن يقصروا العقوبة على النفي ، وحذرهم إن أبوا الاقتصار على ذلك ، بأن يمتنع الكهان عن تبليغهم عن الملحدين ! بل لقد حاول في نجاح أن ينقذ بعض الذين صدرت الأحكام بإدانتهم ، وإن لم يمنع هذا من أن نقول إنه كان يطالب بعقاب الملحدين ، ويقيم حق العقوبة على أساس بشاعة الاتهام الذي اعتبره أعظم الجرائم إطلاقًا ، بل لقد اعتبر التجديف هرطقة ، وقرر معاقبة أهله بالإعدام عدلاً ، واستشهد على عدالة ذلك ، بمثل وردت في « العهد القديم » ، وإن كان قد دافع عن الدوناتست الذين تقرر إعدامهم في عهد قسطنطين ، وامتدح غفران ذنوبهم ، وإلغاء الحكم الصادر ضدهم ! وصفوة الرأي عنده أن العدالة تقتضي أن يعاقب الملحدون بالإعدام ، ولكن من العدالة ألا يلتزم رجال الدين حرفية العدالة الدقيقة ! وكان طبيعيًا بعد هذا أن يهاجم الحرية الدينية في غير رفق .

عقيدة الخلاص والاضطهاد :

نفر الأكليروس زمنًا طويلاً من قمع الهرطقة بإعدام أهلها ، وكان هذا متماشيا مع مبدإ المسيحية في التبشير بحب الناس بعضهم بعضًا على ما أشرنا في مقدمة

الكتاب ، ولكن النفور من فكرة الإعدام ، لم يمنع من حماسة الأكليروس في مقاومة العبادات التي لا تساير تعاليم المسيحية ، ومطاردة أهلها في غير هوادة ، وإقصاء القائمين بأمرها والمروجين لها خارج الإمبراطورية .

وعن عقيدة الخلاص صدر التفكير في الاضطهاد ، إذ أخذ المسيحيون يبشرون بنظرية مؤداها أن « الخلاص » لا سبيل إليه إلا عن طريق الكنيسة الكاثوليكية وحدها ، وروجوا للإيمان بأن الذين لا يذعنون للكنيسة ويعتقدون بصدق نظرياتها ، تحيق بهم اللعنة الأبدية لا محالة ؛ فأفضى هذا الاعتقاد إلى الاضطهاد والتنكيل بكل من أبى الإذعان للكثلكة ، واعتبرت الهرطقة أعظم خطيئة ، لا يقاس ما يبتلى به أصحابها في الدنيا من صنوف الآلام بما ينتظرهم من عذاب الجحيم ، وأضحى إنقاذ الدنيا من أعداء الله واجبًا مقدسًا ، والاتصاف بالفضيلة لا ينهض عذرًا للمروق ، فالطفل على براءته وخلو ساحته من الخطايا ، متى مات من غير تعميد ، قضى بقية حياته في جهنم ، فالطبيعي بعد هذا أن يستهدف المتهمون بالمروق لأشد صنوف العذاب ! .

كان الاضطهاد أروع النتائج التي نجمت عن عقيدة الخلاص ، لأن الإيمان متى اشتد ، ارتفع فوق كل احتمال للجدل ، واعتقد أهله أن كل من يخالفهم في الرأي ، مصيره جحيم يصلى فيه شقاء أبديًا ! لأن الإيمان متى كان متزمتًا متعسفًا أغرى أصحابه باضطهاد كل من لا يدين بدينهم ويساير نزعاتهم ، لا يحد من غلوهم في الاضطهاد ، إلا حاجتهم إلى السلطة ! وقد يكون ضحايا هذا الاضطهاد من الغيرية ونبل النفس واحترام الكرامة ، بحيث يثير اضطهادهم في النفس كل إشفاق ، ولكن فضائلهم تبدو عند غلاة المتزمتين رذائل تستحق كل عقاب صارم ، لأن هذه الفضائل هي التي شجعتهم على التمسك بإلحادهم والتشبث بما يبدو في نظر هؤلاء المتزمتين ضلالاً مبينًا ، والإصرار على الضلال أحق بالعقوبة الصارمة من التردد في اعتناقه أو عدم التطرف في اتباعه ! .

اضطهاد المسيحيين بعضهم لبعض في مصر :

المعروف من تاريخ الأديان أن الاصطدام الذي يقع في الدين الواحد من المذاهب المتقاربة بعضها والبعض الآخر ، يكون أشد وأعنف من الاصطدام الذي يقع بين الأديان المتباعدة ، وحسبنا في التدليل على عنف الاصطدام بين المذاهب المتقاربة في الدين الواحد ، ما وقع في مصر قبيل الفتح الإسلامي ، بالإضافة إلى ما سنعرفه عن الاصطدام بين البروتستانتية والكاثوليكية بعد :

فكر هرقل بعد انتصاره على الفرس في توحيد المذاهب المسيحية كلها ، وعقد لهذا مجمع خلقدونية ، فأقر البطارقة الذين يمثلون فيه شتى المذاهب المسيحية مذهبًا واحدًا ، أراد فرضه على المسيحيين في مصر عن طريق « قيرس » ، وكان بنيامين كبير أساقفة القبط في مصر ، وكان حبيبًا إلى نفوس أهلها ، شديد التعصب لمذهب اليعاقبة الذي كان يدين به أهلها ، فلما قدم قيرس الإسكندرية في خريف عام 631 م فر بنيامين ، وأثار فراره الهلع في نفوس المصريين ، فتنكر اليعاقبة والملكانيون على السواء رغم محاولته التظاهر أول الأمر بالمسالمة والرغبة في التزام الإقناع بالحجة ، ولكن هؤلاء قد اعتبروا الدعوة الجديدة بدعة وكفرًا وضلالاً ، فنزع هذا إلى الشدة والبطش والتعذيب المحض ، ووقع الاضطهاد الأعظم واستمر عشر سنوات حسومًا ، عذب فيها أخو الأسقف الأكبر بنيامين بإحراقه بالمشاعل وخلع أسنانه وتهديده بالإغراق حتى إذا أمعن في الإباء أُلقي في البحر وراح غريقًا ... ! .

وعذب صمويل في ديره بالصحراء .. على ما عرفنا عند الحديث على شهداء المسيحية في مصر . وجلا الكثيرون عن مصر من جراء هذا البطش الآثم ، ولاذوا ببلاد النوبة وأثيوبيا فرارًا إلى الله بدينهم ، واعتنق غيرهم المذهب الجديد تقية ورياء[1]

---

(1) انظر كتاب بتلر « فتح العرب لمصر » طبعة عام 933 الفصل الثالث عشر « الاضطهاد الأعظم للقبط =

الإذعان للكثلكة وانتفاء الاضطهاد :

استراحت الكنيسة الغربية بعد أن خفت عبادة الأوثان في الإمبراطورية الرومانية ، وعاشت عدة قرون لم تشعر إبانها بحاجتها إلى مزاولة الاضطهاد — إلا في حالات نادرة — لأن المبدأ الذي صاغته ، قد أذعن له الناس في الإمبراطورية الواسعة طولاً وعرضًا ، وإن كان بعض الملحدين قد أدينوا من جراء مزاولتهم للسحر ، فأحرق Alexius Comnenus اثنين أو ثلاثة من هؤلاء السحرة ، وكان هذا مصير غيرهم في فرنسا في مطلع القرن الحادي عشر ، وفي كولوني وإيطاليا أحرق بعض الكاثاريين . وهم طائفة من الملاحدة الذين دانوا بالمانوية ، وقد نشأ مذهبهم في كل جنوبي أوربا وغيرها في العصر الوسيط ، ويكاد يكون هؤلاء هم ضحايا الاضطهاد الديني في أوربا خلال عدة قرون سبقت معارك الألبيين (الألبيجيين) .

ومعنى هذا أن الكاثوليكية على هذا الوضع ، كانت مشبعة لحاجات أوربا العقلية ، فلم تكن ظلمًا وبغيًا يفضي الشعور به إلى الثورة عليه والتمرد على أهله ولم تكن مذهبًا مستقلاً يعتنقه البعض ولا يدين به غيرهم ؛ كانت نشاطًا يتخلل جزءًا من وسط أوربا وغربيها على أقل تقدير ، ويؤثر في نظامها الاجتماعي كله ويستوعب مختلف تياراته ، فعادات الناس وتقاليدهم وقوانينهم ودراساتهم ، وكل ما يستمتعون به من وجوه اللذات المباحة وأسباب الترف الحلال ... كلها صدرت عن التعاليم الدينية كما فهمتها الكنيسة الكاثوليكية ، صاحبة النفوذ طوال هذه القرون ...

= على يد قيرس » ص 149 وما بعدها . وانظر الفاروق عمر للدكتور هيكل باشا ج 2 ص 76 - 78 وخلاصة مذهب اليعاقبة أن الطبيعة الإلهية والبشرية امترجتا في المسيح فصارتا فيه طبيعة واحدة ، فكان عند التجسد ذا طبيعتين ، أما بعد فصار ذا طبيعة واحدة ، أما مذهب الملكانية فخلاصته « أن الابن مولود من الآب قبل الدهور ، غير مخلوق وهو جوهره ونوره ، والابن اتحد بالإنسان المأخوذ من مريم فصارا واحدًا وهو المسيح » .

كانت الكنيسة قلب العالم المسيحي وروحه ، ومصدر وحيه ومبعث إلهامه ، وعندها التقت التيارات العقلية والمشاعر الدينية والنزعات الوجدانية ، فلم يكن من الطبيعي إبان هذه المرحلة من حياة أوربا ، أن يظهر الملحدون المارقون الذين يستخفون بدين البلاد وعرفها ، ويضنون باحترام أهل القداسة من رجالها ، ومن هنا كانت السلطة الدينية التي تمثلت في رجال الكنيسة ، وبها شرعوا — يوم بدأ العالم الأوربي يستيقظ من سباته — في كم الأفواه وقمع الفكر الحر ، ومطاردة كل من خالفهم الرأي ، على نحو ما سنعرف بعد قليل .

والواقع أن استجابة المسيحيين في هذا العصر لتعاليم الكنيسة ، كانت أمرًا طبيعيًا ، بعد غزوات البرابرة الذين نزلوا بأوربا ، واعتنقوا المسيحية وامتلأوا احترامًا لرجالها ، مع عجزهم عن مزاولة النقد العقلي ، بحكم ما كانوا عليه من جهل وبداوة .

عودة الكنيسة إلى مقاومة الروح الجديد :

على أن انقلابًا قد شمل مرافق الحياة في أوربا كلها ، أواخر العصر المدرسي ، فنهضت الكنيسة لمقاومة الجامح من التيارات العقلية ومطاردة أهلها ، حتى عاقت شيوع المعرفة الجديدة ، وأطفأت نورها بالدم ..! وعندما بدأت حركة الإحياء العلمي ، بدأت حركة انحلال خلقي كان على الكنيسة أن تقاوم أتباعه اتقاء لشره ، وحرصًا على تجنب ما ينتظر أن يسفر عنه من تقويض الدين والقضاء على نفوذ رجاله .

مذبحة الالبيين (الالبيجيين) :

وفي مطلع القرن الثالث عشر ، نضج نظام الكبح ، ففي سنة 1208 مهد

إنوسنت الثالث لنظام محاكم التفتيش ، وفي العام التالي شرع دي مونفورت De Monfort في قتال الألبين (الألبيجيين Albigeois) بتحريض من البابا إنوسنت الثالث ، وفي نفس العام (1209) أصدر مجلس أفينون Avignon قرارًا دعا فيه القساوسة إلى مطالبة السلطة المدنية باستئصال الهرطقة ! وهدد البابا إنوسنت كل أمير يرفض الاستجابة لهذه الدعوة بإصدار قرار الحرمان ضده . وبعد ستة أعوام (1215 م) قرر مجمع « لاتران » أن يقسم كل حاكم يطمع في أن يكون في عداد المؤمنين ، بأن يجاهد ما وسعه الجهاد ، حتى يستأصل من إقليمه من تسمهم الكنيسة بالهرطقة . ولنعد إلى الحديث عن مذبحة الألبيين :

فشا الإلحاد في لنجيدوك في الجنوب الغربي لفرنسا ، على يد الألبيين من رعايا أمير تولوز ، وكان هذا في عهد إنوسنت الثالث الذي بلغت البابوية على يديه أوجها ، فأشار على أميرهم أن يستأصل الهرطقة من إمارته ، فأبى الأمير أن يذعن لمطلبه ، وعندئذ نهضت الكنيسة لإبادة الحركة واستئصال أعوانها ، فأعلنت غفران كل ذنب ارتكبه من يجاهد للقضاء عليها ، وصبت عذابها على أعدائها ولو كانوا نساء أو أطفالا ، وتعقبتهم شنقًا وحرقًا وإعدامًا ، حتى انتهت الحروب الدامية التي أثارتها باستسلام الألبيين ، وإن بقيت آثار الهرطقة قائمة في نفوسهم ! .

استسلم الألبيون في عام 1229 م وخضع للكنيسة أمير تولوز ، وكان أخطر ما أفضت إليه هذه المعارك الطاحنة ، أن أدخلت الكنيسة في مبادئها العامة هذا المبدأ : يحتفظ الحاكم بعرشه ، متى قام بواجبه في استئصال الإلحاد ، فإن تردد في الاستجابة لأمر البابا باضطهاد الملحدين ، أكره على الطاعة وصودرت أملاكه وبيعت لأعوان الكنيسة ، وعرض نفسه للاعتقال والإذلال ؛ وبهذا أقر البابا نظامًا إلهيًا تيوقراطيًا تخضع فيه كل مصلحة لواجب العمل على حفظ الدين من كل أذى يمسه ..

وسنرى أثر هذا المبدأ الخطير في تاريخ الحرية الدينية والتقدم العلمي في الفصول التالية ، ولا سيما ما اتصل منها بمحكمة التفتيش .

تعقيــــب :

نرى مما أسلفنا أن الكنيسة قد نفرت في عصورها الأولى من اضطهاد خصومها ، واستجابت لمباديء الدين المسيحي الذي نزل مبشرًا بالحب داعيًا إلى توخي الحسنى حتى في معاملة الخصوم والمعتدين . وأيد هذا النزوع ، شعور رجال الدين بحاجتهم في عصرهم الأول إلى سيادة مبدإ التسامح ، لأنهم كانوا مضطهدين من جمهرة الناس وأكثر الحكام على السواء ، فلما تهيأت لهم السلطة التي تمكنهم من اضطهاد خصومهم ، نسي المتزمتون منهم مبادئ دينهم السمح الكريم ، ونزعوا إلى التنكيل بكل من عصى أمرهم أو خالف رأيهم ، ووجدوا فيما ورثوه عن بني إسرائيل ، وأخذوه عن أمثال القديس أوغسطين ما أغراهم بالاضطهاد ، وأيد سياسة النزاعين إلى الكبح والتنكيل من الأباطرة والكهان على السواء .! .

ومهدت مذبحة الألبيجيين لقيام محكمة التفتيش التي أثارت الهلع في العالم الكاثوليكي طولاً وعرضًا ، فلنقف عندها قليلاً .

3 ـ محكمــة التفتيــش

في العالم الكاثوليكي

نشأة محكمة التفتيش ـ من نظام محكمة التفتيش ـ محكمة التفتيش في أسبانيا ـ لماذا انتصر الاضطهاد على الإسلام في أسبانيا ؟ ـ التفتيش على خصومها ـ من آثار محكمة التفتيش ـ من وجوه التعذيب عند محكمة التفتيش ـ إثارة الألم والهلع في النفوس ـ إحصاء ضحايا محكمة التفتيش ـ بين اضطهاد الحقيقة العلمية والعقيدة الدينية ـ تدرج الكنيسة من الرحمة إلى التنكيل .

*   *   *

نشأة محكمة التفتيش :

جندت الكنيسة أصحاب السلطة الزمنية في خدمة تعاليمها ، والتمكين لإرادتها ، بالإجراءات التي انتهت إليها بعد إبادة ، الألبيجيين ، واستئصال حركتهم على النحو الذي عرفناه في الفصل السالف ، ولكن الكنيسة لم تقنع بذلك وأخذت تتعقب

المرطقة في مظانها السرية[1] إذ ليس يكفي القضاء عليها بالعنف حين يستفحل أمرها ، ولا النص على إشراك السلطة التنفيذية في إبادتها ، متى ظهرت واستشرى داؤها ، وإذن فلتأخذ الكنيسة حذرها ، فترصد عيونها يفتشون عن خصومها ، وتقيم المحاكم لتروع الملحدين بصرامة أحكامها .

وقد عهدت الكنيسة إلى آباء الدومنيكان أداء هذا الواجب الديني الجليل ، وأنشأ البابا جريجوري التاسع في عهد لويس التاسع ملك فرنسا محكمة التفتيش أو ديوان التحقيق Inquisition عام 1123 م ، ومكن لهذا النظام أمر بابوي أصدره إنوسنت الرابع عام 1252 م ، وضبط به نظام الاضطهاد كجزء رئيسي من الكيان الاجتماعي لكل مدينة أو دولة ! وكانت هذه أبشع أداة لكبح التفكير النزيه والضمير الحر ، لم يعهد التاريخ لها نظيرًا .

من نظام محكمة التفتيش :

وقد اختير الرهبان ووكل إليهم السعي باسم البابا لاكتشاف الملحدين ، وكانوا بحكم عضويتهم في ديوان التحقيق أصحاب نفوذ واسع النطاق ، لا يخضعون لرقابة أحد ولا يسألون عما يفعلون ، وتعاونت السلطات التنفيذية على إقرار هذا النظام ، فسنت القوانين الصارمة للتنكيل بالمارقين ، وتساوى في هذا أهل الغفلة مع أحرار الفكر من الحكام ! وحسبنا شاهدًا على هذا موقف فردريك الثاني في القرن الثالث عشر ، فقد شرع القوانين التي تقضي بإهدار دم الملحدين ومصادرة أملاكهم ، وإحراق غير المرتدين إلى الدين ، وسجن من تاب وعاد إلى اعتناق دينه ، وإعدام

---

(1) استعنا بكتابنا قصة النزاع بين الدين والفلسفة في الشطر الأول من حديثنا هذا عن محكمة التفتيش ، والشطر الأول من حديثنا عن حركة الإصلاح الديني .

من عاد فارتد ملحدًا ... إلى آخر ما انتهى إليه ، مما لا يتفق مع رجل اشتهر بحرية التفكير .

وقد توطد هذا النظام وشاعت المحاكم حتى غطت العالم المسيحي الغربي بشبكة لا سبيل إلى اتقائها ، وكان أعضاؤها في شتى البلاد على اتصال وتعاون يهدف إلى تحقيق مهمتهم الخطيرة ، وإذا كانت انجلترا قد أفلتت من براثن هذا النظام ، فإن حكومتها في عهد هنري الرابع والخامس ، قد قمعت الهرطقة باستعمال الخازوق تحت تمثال معين (عام 1400 ، وقد تقرر إلغاء هذا النظام عام 1533 وأعيد في عهد ماري ثم أبطل في عام 1676 م) .

محكمة التفتيش في أسبانيا :

أما في أسبانيا فقد نهضت محكمة التفتيش (القديمة في أراجون) بمقاومة الألبيين — على ما عرفنا منذ حين — فلما انتهت من قتالهم بإلزامهم طاعة الكنيسة ، ولت وجهها شطر اليهود ، وصبت عليهم العذاب ألوانا ، متذرعة بأتفه الأسباب وأوهن الاتهامات ، واستجابت إيزابيلا وزوجها فرديناند إلى نصح راهب دومنيكي يتقد تعصبًا — هو توركويمادا Torquemada — والتمسا من البابا سكستوس الرابع إصدار مرسوم بإنشاء محكمة التفتيش ، فنشأت هذه المحكمة في قشتالة في عام 1478 ثم في أشبيلية وغرناطة وغيرها من مدن أسبانيا بعد ذلك .

وقد استنفدت الكنيسة جهدها في إقناع المسلمين المقيمين في أسبانيا ، لكي يرتدوا عن دينهم ويعتنقوا المسيحية دينًا ، وعلى غير جدوى ما بذلت من جهود ، فاستجمعت محكمة التفتيش كل قواها ، واعتصمت بالجرأة والتعصب ، وصبت عذابها على المسلمين في غير رفق ولا عدالة ، حتى اعتنق النصرانية من خار في ميدان الكفاح ، وهاجر من حار بين التمسك بعقيدته ، واحتمال آلام العذاب وفي عامي 1609 و 1610 تم جلاء ألوف المسلمين عن أسبانيا ، بعد أن أغرقوا بدمائهم أرضها ، وكتبوا

بمقاومتهم أنصع الصفحات في تاريخ الجهاد في سبيل الله .

لماذا انتصر الاضطهاد على الإسلام في أسبانيا ؟ :

انتصر هذا الاضطهاد الدامي ، في مقاومة الإسلام والتنكيل بأهله في أسبانيا ، لأنه كان من وقدة العنف بحيث لم يبق من أتباع الدين أحدًا ، إنه لم يقاوم فكرة الإيمان من حيث هي كذلك ، ولو نزع إلى شيء من هذا لكان الفشل مصيره المحتوم ، ولكنه أبقى على مجال الإيمان ، وحاول أن يغير مجراه ، فحوله في نفوس الناس من الإسلام إلى المسيحية ، ولم يكن هذا بالشيء الهين اليسير ، ولكن الاضطهاد الدامي الذي حاول أن يحصد الإيمان الإسلامي في قلوب أهله ليغرس مكانه الإيمان المسيحي ، قد أخفق في تحقيق غايته ، مع الكثيرين الذين أبوا الإذعان لما أريد بهم ، فسلط الاضطهاد عليهم كل ويلاته وطاردهم حتى غادروا البلاد إلى حيث يجدون الأمان ..! ونشأت الأجيال التالية على الإيمان بالمسيحية ..

أساليب محكمة التفتيش مع خصومها :

وكان من بين الوسائل الفعالة في مطاردة المارقين ، « فرمان الإيمان » الذي جند الناس في خدمة ديوان التحقيق (أي محكمة التفتيش) وحتم على كل امرئ أن ينهي إلى مركز الديوان في غير تباطؤ ، ما يترامى إلى سمعه من شأن الملحدين ، وللمقصرين عقابهم الدنيوي والديني معًا ، ومن أجل هذا لم ينج أحد من اشتباه جيرانه ، وإساءة الظن به حتى في نطاق أسرته ، ولم يكن ثمة أبرع من هذه الحيلة الماكرة في قهر السكان جميعًا ، وقمع نزعاتهم الحرة وشل تفكيرهم الطليق ، وردهم إلى الطاعة العمياء ، لأنها رفعت التجسس إلى مرتبة الواجب الديني الخليق بالإكبار ! .

أما الطريقة التي اتبعت في محاكمة المتهمين بالهرطقة في أسبانيا ، فكانت تنكر كل طريقة معقولة لتوكيد الحقيقة ، فلم يكن المتهم بريئًا حتى يثبت اتهامه ، بل اعتبر كل متهم مذنبًا حتى تثبت براءته ، إن كان هذا ممكنًا ! ومن ثم وكلوا إليه عبء التدليل على براءته ..! وكان قاضيه هو المدعي عليه ، وكل من تقدم للشهادة ضده ، قبلت شهادته ولو كان من أرباب السوابق ، كانت قواعد ادعاء الشهود عليه مرنة طلقة ، وعلى عكسها كانت القواعد التي وضعت لرفض شهود الدفاع ، من حق اليهود والمغاربة والخدم والأقارب إلى الدرجة الرابعة ، أن يقدموا ضد المتهم أدلة تثبت إدانته ، ولكنهم ممنوعون من الشهادة في صالحه ! والمبدأ الذي اعتنقته محكمة التفتيش كان يقول : لأن يدان مائة بريء زورًا وبهتانًا ، ويعانوا العذاب ألوانًا ، خير من أن يهرب من العقاب مذنب واحد ..! ومن ساهم في تقديم الوقود الذي يحرق به الملحد فقد استحق المغفرة ! على أن المحكمة مع هذا ، كانت تشفق على نفسها من أن تتهم يومًا بالقسوة الصارمة ، إذ كانت تتقي الحكم بإهراق الدم ، فلا تحمل تبعة الإعدام على « الخازوق » أو نحوه ، فكان القاضي الإكليركي يعلن أن السجين ملحد لا أمل في توبته ، ثم يسلمه إلى السلطات الزمنية ، ويلتمس عندها التزام الرحمة والرفق في معاقبته ..! على ما عرفنا من قبل . وكان المعروف أن السلطة الدنيوية لا تستجيب لهذا المطلب ، بل لا تملك إلا إعدام المتهم بالهرطقة في مدة لا تتجاوز الأيام الستة ، وإلا اتهمت بالعمل على ترويج الإلحاد ..! وقد كان القانون يلزم جميع الأمراء والموظفين بالإسراع في تنفيذ العقاب ، فيمن أسلمهم إليه ديوان التحقيق محرومين من الكنيسة .

من آثار محكمة التفتيش :

أشاعت هذه المحاكم روح الصرامة والقسوة في نفوس الناس ، وكان لطريقتها في الاضطهاد والتنكيل ، تأثير بالغ السوء في فقه القانون الجنائي في أوربا كلها ، ويرى

الأستاذ « لي » Lea مؤرخ ديوان التحقيق ، أن أعظم الأخطار التي نجمت عن محكمة التفتيش ، ربما بدت في تقليد أكبر شطر في أوربا لطريقتها ، حتى أواخر القرن الثاني عشر ، في معاملة من كان موضع اتهام ويرى « جيبون » أن كراهية الإلحاد ، كانت نوعًا من الجرائم المعدية ، وأنها نشأت عن نظرية الخلاص على ما أسلفنا من قبل ، بل إنها أضرت بقيمة الحقيقة في نظر الإنسان فأصبح من المشروع بل من الضروري اتخاذ كل وسيلة تؤدي إلى تقوية المعتقد الديني ، بالغًا ما بلغ زيفها وخداعها ! أما تقدير الحقيقة لذاتها فإنه لم يحتل مكانه واضحًا في عقول الناس إلا في مطلع العصر الحديث ، في القرن السابع عشر .

وقد ساعدت هذه المحاكم على إفساد الأخلاق ، إذ طالما أدى حسد العلماء بعضهم لبعض ، إلى اتهامات لا يبررها سند من الحق ، وقد راح ضحية هذا الحسد الكثيرون ، ولم يكن هذا ببدع على محكمة يدرك قضاتها خطأ الاتهام وتداعيه ، ولا يمنعهم هذا الإدراك من إدانة المتهم ..! .

من وجوه التعذيب عند محكمة التفتيش :

ولم يكن الغرض من التنكيل بالملحدين وإعدامهم ، مجرد التخلص من شرورهم ، بل كان يهدف مع هذا إلى إيثار الفزع في نفوس الذين يوسوس لهم الشيطان بالمروق ، ويرمي إلى أن تتكفل الصرامة بتطهير القلوب من أدران الهواجس وحفظ الناس في أمان ، ولم يجر الإعدام على وجه من السرعة يكفل اتقاء العذاب الممض والألم المبرح ، بل جرت العادة بأن يحرق الملحدون أحياء ، وبأن تكون النار التي تلتهم أجسادهم بطيئة لا تأتي على ضحيتها دفعة واحدة ! وكانوا يبررون إطالة العذاب على هذا النحو ، بأنه يبيح للمتهم فسحة من الوقت ، يستطيع أن يعلن فيها توبته ..! وهذا الإحراق تسبقه مراحل من التعذيب بالكي بالنار ونحوه تختبر فيها صلابة العزم وعمق الإيمان وقوة الإرادة ، وهذا الأسلوب في اختبار المتهمين ،

قد حدده أمر بابوي أصدره إنوسنت الرابع ، وأعاد توكيده كليمان الرابع في أمر بابوي آخر ؛ وقد جرى العرف بين رجال ديوان التحقيق ، على أن يواصلوا تعذيب الملحد الذي يقر بذنبه ويعترف بخطيئته ، عسى أن يؤدي هذا إلى اكتشاف شركائه في جريمته ! .

وبمثل هذا العذاب الجسماني ، عوقب الذين زاولوا التفكير الحر في البحث عن الحقيقة .

ولكن كيف يسهل على اللغة أن تصور العناء العقلي الذي صاحب هذا العذاب الجسماني ..؟ إن من يرتكب في أيامنا الحاضرة جريمة يعاقب عليها القانون ، ينال — متى كان راشدًا — جزاء ما قدمت يده ، وينجو من العقاب كل من تربطهم به صلات رحم وقربى ، إلا إذا كانوا شركاءه في جريمته ، وعلى غير هذا جرى الحال في تلك الاضطهادات ، في الأغلب والأعم ، فكانت القوانين تقضي بأن يحمل الأبناء والأحفاد في سلسلة الأبناء ، تبعة الجرم الذي يدان به الآباء ، فيسلبون حقهم في مباشرة الكثير من الوظائف ، ومزاولة الكثير من المهن ..! .

ولم يكن الذين يلاقون على يد محكمة التفتيش حتفهم ، أشباه الذين راحوا ضحية الاشتغال بالعرافة ومزاولة السحر ؛ مجرد نساء شمطاوات لا وزن لهن ولا قيمة ، وإنما كان المتهمون بالإلحاد رجالاً في ربيع العمر ، تضطرم الحماسة في قلوبهم ، وتتقد نفوسهم نشاطًا ، وكان الذين ينطوون لهم على الحب والإعزاز ، لا يساورهم الشك في أن الآلام التي يكابدونها في دنياهم ، ليست إلا نذيرًا بما ينتظرهم بعد الممات من آلام ممضة دائمة ؛ وكان هذا أوضح ما يكون عند النساء اللائي استبد سلطان الأكليروس بقلوبهن ، وأحرج الشعور بآلام الآخرين صدورهن .

إثارة الألم والهلع في النفوس :

وكم كان مثيرا للهلع منظر الملحد وهو يسام العذاب ، وكم كانت آلام

زوجه أو أمه أو ابنته مثارًا لكل إشفاق ! إنها ترى من كانت تفديه بحياتها وما ملكت ، يتلوى من فرط الألم ، ويرتجف من هول الفزع ، إنها ترقب النار وهي تزحف في بطء على جسمه ، وتلتهم أعضاءه واحدا بعد آخر ، فإذا استوفى أنفاسه وأخفت الموت صيحة ألمه الممض ، واستراح جسمه المعذب ، قيل لهذه البائسة : إن هذه هي إرادة الله الذي تعبدين ، وأن ليس هذا العذاب إلا صورة باهتة لعذاب سرمدي مقيم ينزله الله بأمثال هذا الملحد ! هذه نظرية ترددت فوق المنابر ، وحفرت فوق المذابح في الكنائس ..! .

وقد كان الملحدون في أسبانيا ، يقادون إلى محارق النار ، وقد غطت أثوابهم صور الشياطين وآلات التعذيب ، لكي يذكر النظارة المصير الذي ينتظر كل مارق .

وكان هؤلاء التعساء يحسبون وهما ، أنه إذا اعترفوا بذنوبهم عند الاستشهاد ، خلصوا أنفسهم من عناء العذاب ، وأنقذوا أطفالهم من المصير الأليم ! إذ كان الأبناء — على ما أشرنا — يؤخذون بذنب الآباء ، فتصادر أملاك هؤلاء ، إذا لم يقروا بذنوبهم ، ويندموا على ما قدمت أيديهم ، ويلجئوا إلى الله تائبين ، ومعنى هذا أن العقوبة تمتد حتى تصيب الورثة ..! وهو لون من الإجحاف برره البعض ببشاعة الجرم الذي أدين به الملحدون ! فقد اقتضت عدالة الله حين حوسب آدم على ذنبه أن يطرد مع ذريته ..! ومن ثم كان أطفال الملحد يتركون للفقر المدقع والعوز المطلق ، وعليهم سمات تكفلت إبان القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، بأن تحرمهم من كل رحمة ، وتسد أمامهم كل باب للأمل ، وتطفيء في وجوههم كل بريق للإحسان ..! تشرد ذرية الملحد وتترك للجوع أو لحياة الدعارة ..! وكان هذا من غير شك أمض الآلام التي عاناها هؤلاء الشهداء ، فكان الأمل في النجاة من هذا الشر المستطير ، أكبر البواعث إغراء بالارتداد والاستجابة لتعاليم الكنيسة .

وقد اعتمد إنوسنت الثالث مصادرة أملاك الملحد ، بحجة أن الشريعة الإلهية كثيرًا ما تحاسب الأطفال على خطايا آبائهم ! وأيد الإسكندر الرابع هذا الزعم !

ومع هذا فقد كان من حق الأبناء أن يحتفظوا بميراثهم ، متى خانوا عهد آبائهم وأفشوا أسرارهم ، وهدوا رجال التحقيق إلى أمرهم ..! .

وقد جرت العادة مع رجال محكمة التفتيش ، أن يعلنوا قبل أن يباشروا مهمتهم في منطقة ما ، غفران الذنوب لكل من أقر بذنبه ، وعدل عن إلحاده في ظرف ثلاثين أو أربعين يومًا ؛ وعندما أنشيء أول ديوان للتحقيق في بلاد الأندلس ، أدى هذا الإعلان ــ فيما يقال ــ إلى أن يعدل عن الإلحاد سبعة عشر ألفًا .

إحصاء ضحايا محكمة التفتيش :

غرقت أوربا في بحر من الدماء ، على يد محكمة التفتيش ، وبفضل ضغط الرأي العام الذي كان يهيمن الأكليروس على توجيهه ، وقد بزت الكنيسة الرومانية غيرها في أنحاء أوربا في إهراق الدم البريء ، وإن لم يكن من الميسور تكوين فكرة صحيحة دقيقة عن عدد الشهداء الذين راحوا ضحية عسفها واضطهادها ، وليس من اليسير أن نتصور مدى العذاب الذي عانوه ، وحسبنا أن نسوق بعض الأرقام للدلالة على روعة هذا الاضطهاد الدامي ، معتمدين على المؤرخ لورنتي Lorente الذي أتيح له البحث بمطلق الحرية في « أرشيفات » محكمة التفتيش في أسبانيا .

يقول لورنتي إن المحكمة وحدها قد قدمت إلى النار أكثر من واحد وثلاثين ألف نفس ، وأصلت أكثر من مائتين وتسعين ألفًا عقوبات أخرى تلي الإعدام في صرامتها ، وهذا الرقم لا يشمل الذين أودت بحياتهم فروع هذه المحكمة ــ الأسبانية ــ في مكسيكو وليما Lima ــ بأمريكا الجنوبية ــ وقرطاجنة وجزر الهند الغربية وصقلية وسردينيا ، وأوران ومالطة ..! وقد كان لورنتي نفسه ، سكرتيرًا لديوان التحقيق ، وكانت لديه عند احتلال فرنسا ، جميع الأوراق السرية في هذا الديوان ، ويقول « ليكي » معقبا على هذه الإحصائية إن القارئ يسره من غير

شك ، أن يكون لورنتي قد بالغ في أرقامه ، وقد كشف برسكوت Prescott هذا الغلو في حالة أو حالتين ، يقول ماريانا Mariana إن أكثر من ألفى نسمة قد لاقوا حتفهم حرقًا على يد محكمة التفتيش في عهد توركويمادا وحده ! ويقول مؤرخ قديم ـــ هو برنالتز Bernaldez ـــ إن سبعمائة فرد قد أحرقوا في أشبيلية بين عامي 1482 - 89 ، وأن باب محكمة التفتيش في هذه المدينة قد وجد في عام 1524 وقد كتب عليه إن ألفًا من اليهود قد التهمتهم النار منذ تقرر طردهم في عام 1492 . ! وقد حدد بعض المؤرخين عدد الذين أعدموا في عهد تشارلس الخامس في الأراضي الواطئة وحدها بخمسة آلاف نسمة ، بل ارتفع غير هؤلاء بهذا الرقم إلى مائة ألف ..! وقد لاقى حتفه نصف هذا العدد ـــ على أقل تقدير ـــ في عهد ابنه ! ففي السادس عشر من شهر فبراير من عام 1568 أصدر الديوان المقدس قرارًا بإدانة جميع سكان الأراضي الواطئة والحكم عليهم بالإعدام متهمين بالهرطقة ..! واستثني من هذا القرار بضعة أفراد نص القرار على أسمائهم ! وبعد عشرة أيام أعلن الملك صحة هذا القرار وأمر بتنفيذه في الحال ؛ فتقدم إلى المقصلة ملايين من الرجال والنساء والأطفال فيما يروي ليكي . وهذا كله بالإضافة إلى الذين راحوا ضحية الاضطهاد الآثم منذ أيام شارلمان ، حتى أيام أحرار الفكر في القرن السابع عشر .. ! .

ولقد لبثت محاكم التفتيش قائمة في العالم الكاثوليكي حتى القرن الثامن عشر ، بل ظلت قائمة في أسبانيا شطرًا من القرن الغابر ، بل إن إلغاءها لم يقض على التعصب الذي كان قد أدى إلى وجودها ، إذ ظل قائمًا في الصدور بعد إلغائها ، ولم يتحرر العالم من عهده الظلوم ، إلا بعد معارك آثارها الأحرار على ما سنعرف بعد حين .

بين اضطهاد الحقيقة العلمية والعقيدة الدينية :

وإذا كان الاضطهاد قد أخفق في مجال الحقيقة التي تكشف عنها البحث العلمي

أو النظر الفلسفي — على ما عرفنا في كتابنا عن النزاع بين الدين والفلسفة — فقد نجح في مجال الاعتقاد الديني ، فأخفت كل صوت ارتفع بالمقاومة ، وأثارت القسوة والصرامة فزع الناس وملأت قلوبهم هلعًا ، فارتد أصلب الناس قناة ، أو تفانوا في سبيل عقائدهم وراحوا شهداء ، أو ولوا الأدبار ولم يمكنوا الاضطهاد من أن ينالهم بسوء — وكل هذه الحالات انتصار للاضطهاد ، إذ لا تجيء الأجيال الجديدة في البلد الذي يزاول مثل هذا الاضطهاد المرير الدامي ، إلا وقد حقق الاضطهاد الآثم غايته ، وأقر في قلوب الناس الدين المنشود .

تدرج الكنيسة من الرحمة إلى التنكيل :

أشرنا من قبل إلى أن إهراق الدماء كان موضع نفور ملحوظ من آباء الكنيسة الأولين ، وأنهم كثيرًا ما ناهضوا النزوع إلى إعدام الملحدين ، وصبوا لعناتهم على من زاوله في نفس الوقت الذي جدوا فيه صادقين في مقاومة الإلحاد في كل صوره ، ولكن هذا الشعور الكريم قد تلاشى في أواخر العصر الوسيط ، ولم يبق من آثاره إلا احتيال الكنيسة على إبداء هذا النفور ، عندما تكل إلى السلطة المدنية تنفيذ أوامرها ، وتلتمس الترفق في معاملة الملحدين ، وهي تعلم أن هؤلاء الحكام المدنيين لا يملكون إلا المبادرة إلى تنفيذ هذه الأحكام الصارمة الآثمة ، فإن أبطأوا في ذلك أكثر من ستة أيام ، عرضوا أنفسهم لقرار الحرمان[1] .

---

(1) نوع من العقوبة أخذه المسيحيون عن قدماء الوثنيين ، وفي العهد الذي كان للبابا الحق في تتويج الأباطرة ، كان الحرمان يسلبهم تيجانهم وعروشهم ، وقل استعمال البابا لهذا الحرم بعد القرن السادس عشر ، وقد حرم البابا بيوس الخامس ملكة الإنجليز اليصابات عام 1580 وأباح لرعاياها عصيانها ، وحرم البابا بيوس التاسع في النصف الأخير من القرن الغابر ملك إيطاليا فكتور عمانويل لاستيلائه على أملاك الكرسي الرسولي ، أما حرمان=

وفي الحق إن الإنسان ليعجب من هذا التطور الذي أدرك رجال المسيحية ، كان الوثني يقول عنهم في القرن الأول : انظروا كيف يحب المسيحيون بعضهم بعضًا ، فما انقضت بضعة قرون حتى كان يقول : هل عرفت الدنيا وحوشًا كهؤلاء الذين يفترسون كل من خالفهم دينًا ..! .

ولعل مما يثير في النفس الألم الممض ، أن يكون شهداء هذه الاضطهادات الآثمة في العادة رجالاً لم تبرأ ساحتهم من أدران الاتهام الموجه إليهم فحسب ، بل برهنوا باستشهادهم في سبيل مبدئهم على أنهم خليقون بكل إعجاب ، ومن طريف المفارقات ، أن ترتكب هذه الجرائم باسم الدين الذي نزل مبشرًا بالحب والحلم والعفو والتسامح .

خضبت الكنيسة تاريخها بدم الشهداء ممن أسلفنا ذكرهم ، ولكن الفكرة المجرمة التي أودت بحياة الألوف من الشهداء فرادى ، قد أوحت بخوض غمار سلسلة من المذابح والحروب الدينية أدت إليها حركة الإصلاح الديني ، وانتصار بعض الحكام لنزوع أهلها إلى بعث الدين الصحيح ومقاومة مفاسد الكنيسة ؛ وما من شك في أن استيفاء البحث في موضوعنا ؛ يقتضي الحديث عن اضطهاد الكنيسة لأتباع هذه الحركة .

= غير الملوك والأباطرة فكان على نوعين ، حرمان المحروم من بعض المزايا الكنسية ، متى كان جرمه بسيطًا ، فإن كان الجرم كبيرًا ، طرد المحروم من عضوية الكنيسة — إن كان عضوًا بها — وحرم من معاشرة المسيحيين ، ودفن على غير الشعائر المسيحية ، وقد أيدت القوانين المدنية عقوبة الحرمان الكنسي ، فسلبت المحروم حقوقه المدنية في وظائف الدولة وصادرت أملاكه ، وحرمته من الرتب ونحوها . وقد يصدر البابا قرار الحرمان ضد أمة كاملة ، وعندئذ تغلق كنائسها ويمنع الزواج بين أهلها ، ولا تبارك الكنيسة دفن موتها ... إلخ ، ولا يزال التاريخ يذكر إذلال كانوسا في القرن الحادي عشر ، شاهدًا على روعة الحرمان للخارجين على طاعة البابا .

4 ـ اضطهـاد البروتستانـت

تهجم المصلحين على الكنيسة ـ بواعث اشتداد النزاع بين المعسكرين ـ الحروب الدينية في المسيحية ـ بدء النـزاع بيـن البابويـة والبروتستانت ـ الحروب الدينية التي أثارها فيليب الثاني ـ مذبحة سان بارثلميو ـ فرنسا بعـد المذبحة ـ البروتستانت بين التسامح والاضطهاد ـ النزاع في إنجلترا منذ قيام الإصلاح الديني ـ تآمر الكاثوليك على نسف البرلمـان ـ اضطهـاد الكاثوليك ـ حرب الثلاثين عامًا ـ مبـررات اضطهادات البروتستانت ـ حقيقة البروتستانت والاضطهاد ـ موقف المسيحية السمحاء من هذا الاضطهاد .

* * *

تهجم المصلحين على الكنيسة :

اجتاحت القبائل المتبربرة الدولة الرومانية في عام 476 م ، ولكنها استكانت لسلطان الكنيسة الروحي ، واعتنق الكثيرون من أفرادها الديانة المسيحية ، وسرعان

ما تهيأ للبابا سلطان أخذ يتزايد حتى طمس نفوذ الملوك والأباطرة ومن إليهم من الحكام ، وهيمنت الكنيسة على أوروبا دينيًا وعلميًا ، إلى جانب ما تهيأ لها من نفوذ سياسي ؛ فلما استيقظ العقل الأوربي في عصر النهضة ، واحتل مكان الوحي الديني الذي خفت صوته في آذان الناس ، اجتاحت الكنيسة ومعتقداتها حملة عنيفة من النقد العقلي الهدام ، إذ أثار رواد الفكر الحديث مشكلة التسامح الديني في كل صوره ، وارتدوا إلى النصوص المقدسة وجدوا في تفهمها ومعرفة أسرارها ، واستنفدوا الوسع في الكشف عن سوءات الكنيسة وزيف تعاليمها وفساد رجالها ، وانتصر الكثيرون من الأمراء لهذه الحركة عسى أن تقوض سلطان الكنيسة وتقيهم طغيان رجالها الذين جاروا على نفوذهم ، واغتصبوا الكثير من حقوقهم .

اتجهت الحركة الجديدة إلى إرجاع الدين إلى الكتب المقدسة ، ورفض التسليم باحتكار الكنيسة لتفسير نصوصها ، وتمكين العامة من الاطلاع عليها ومحاولة تفهمها وسلب الكنيسة حقها المزعوم بصدد غفران الذنوب ، والاتجار بصكوك الغفران وثواب الآخرة وسعادتها ، واتجه المصلحون إلى نقد الطقوس الدينية والاعتراف وعبادة القديسين وغير هذا مما هو معروف عن حركة الإصلاح الديني في عصر النهضة . وكان من أعلام هذه الحركة مارتن لوثر ت 1546 في ألمانيا ، وزونجلي ت 1531 وكلفن ت 1564 في سويسرا وغيرهم من رواد الإصلاح الديني إبان هذه الفترة[1] .

وليس يعنينا في هذا الكتاب أن نعرض لتفصيل موقفهم وبيان وجهات نظرهم ،

---

(1) سبقت هذه الحركة ، حركة أخرى في القرن الرابع عشر ، أدى إليها ضعف البابوية واضمحلال نفوذها ، فظهر ويكلف Wycliffe وطالب بإصلاح الكنيسة وتهجم على البابوية وفساد تعاليمها . وتأثر بآرائه جون هوس J. Huss وأخذ ينشر بتعاليمه في بوهيميا ويدعو إلى الباباوات الذين فسد سلوكهم وساءت تصرفاتهم ، فانعقد مجلس كنستانس عام 1414 بعد أن أبى هوس العدول عن آرائه ، وقرر إدانته بحجة أن تعاليمه لا تتفق مع تعاليم الكتاب المقدس ثم سلمه إلى السلطة المدنية فتولت إحراقه في عام 1415 وتابع مريدوه نشر مذهبه .

وحسبنا من تاريخهم أن نلم بوجوه المتاعب التي أنزلتها الكنيسة الكاثوليكية بهم ، ونعرف مدى الاضطهاد الذي عانوه ، ومبلغ النجاح الذي صادفوه ، وأظهر الحروب التي ثارت من جراء تعاليمهم ، ثم نعقب على هذا ببيان اضطهادهم لخصومهم الذين تمردوا على طاعتهم أو تصدوا لمقاومة تعاليمهم بعد أن واتتهم السلطة وأصبحوا قادرين على التنكيل بمن لا يذعن لآرائهم ، فنقف بهذا على وجوه الاضطهاد في معسكرات الكاثوليك والبروتستانت على السواء .

بواعث اشتداد النزاع بين المعسكرين :

كان الطبيعي أن تتميز الكنيسة غضبًا لكل حركة ترمي إلى تقويض سلطانها وتهدف إلى تزييف رجالها ، ولم يكن من الميسور لرواد الإصلاح الديني وقد آمنوا بفساد الكنيسة أن يتخاذلوا وينكصوا على أعقابهم متى نهضت الكنيسة لمقاومتهم ، ومن هنا كان الصراع الدامي الذي تجاوز نطاق الأفراد إلى معسكر الحكومات ، وحمل الشعوب على أن تكابد متاعب الحروب الدينية أعوامًا طوالاً ؛ بل أكثر من قرنين من الزمان ، اضطرمت فيهما نيران الحروب في أوروبا طولاً وعرضًا .

وحين نهض بالإصلاح الديني رواده كان الناس يدينون بدين ملوكهم وحكامهم ولم تكن حرية الفرد في اعتناق الدين الذي يراه قد عرفت بعد ؛ ومن هنا كان حرص رجال الدين من البروتستانت والكاثوليك ؛ على أن يكون حكام البلاد على دينهم ؛ وكان التوصل إلى هذا كثيرًا ما يقتضي خوضَ غمار حروب طاحنة ومذابح مروعة ؛ سنعرف أمرها بعد قليل .

وقد أحسن رواد الإصلاح الديني قيادة الجماهير ، ونجحوا في إثارة عواطفهم وإقناعهم بفساد الكنيسة وضرورة إصلاحها ؛ ووفقوا في إثارة اهتمامهم برد الدين إلى أصوله وسرعان ما تحولت هذه البواعث العقلية إلى فيض من التعصب والحقد ،

فاضطرم الثائرون حماسة لنصرة مذهبهم الجديد ، بالغًا ما بلغت تضحياتهم في سبيل ذلك ، وإذا هاجت العواطف في نفوس المؤمنين فليس لتمردهم على الأوضاع الفاسدة حد ينتهي عنده ، ولا لطغيانهم على خصومهم نهاية يقف عند بلوغها ، ومن هنا كانت حماسة الثائرين في الدفاع عن مذهبهم ، وتماسكهم في احتمال العذاب من أجله ، وهي فورة أيدتها العدوى النفسية التي كانت تسري بين الناس ، في سرعة البرق الخاطف ، وزكاها الاضطهاد الذي كان الإمعان فيه يقوي المذهب الجديد ويزيد من شهدائه ! ومتى اجتمع المتمردون بعضهم ببعض اعترتهم الحماسة وازدادت وقدة واشتعالاً ، وسرعان ما يتغير سلوكهم حتى تتحول رقة الوديع المسالم ، صراحة تحمل صاحبها على جناح العنف البالغ إلى التنكيل بخصومه والسير على جثتهم في غير تردد أو إشفاق ! وهذا ما سنراه عند استعراض هذه المرحلة من النزاع :

الحروب الدينية في المسيحية[1]

بدء النزاع بين البابوية والبروتستانت :

عندما أعلن لوثر على باب الكنيسة في ألمانيا بطلان الصكوك التي كانت تبيعها الكنيسة للناس ، لتغفر لهم ما تقدم من ذنوبهم وما تأخر ، أشار البابا على رجاله بأن يردوه عن غيه وزيغه بالحجة المقنعة ، فلم يزده جدلهم إلا إصرارًا ، وامتدت ثورته إلى البابوية نفسها ؛ فأعلن أنها بدعة خلا منها عهد الرسل الأولين ..! وطالب بإخضاع الكنيسة للسلطات الدنيوية ... فبادر البابا بإصدار قرار الحرمان ضده ، ولكن لوثر أحرق القرار على ملأ من الناس ! وأعلن مجمع ورمس أنه طريد القانون

---

(1) استقينا من الأستاذين رفعت وحسونة في « معالم تاريخ أوربا في العصر الحديث » بعض معلوماتنا عن وقائع هذه الحروب ، وأضفنا إليها ما آثرنا إضافته من غيره من المصادر .

وأباح إهدار دمه ، وحذر المؤمنين من قراءة كتاباته ..! .

وتوارى لوثر مختبئًا مدة عامين نقل فيها الإنجيل إلى الألمانية ، وفشت دعوته وصادفت هوىً عند الكثيرين في مختلف الطبقات ، وأفضت بالفلاحين إلى ثورة دامية أثارت قلق لوثر ، لأنها أغضبت الأمراء الذين كانوا يناصرونه فوق أنه كان يضيق بإهراق الدماء من أجل دعوته . ولبث الجدل قائمًا بين الكنيسة والبروتستانت حتى انتهى بحروب طاحنة توجها صلح أجزبرج عام 1555 م ، هدأت الحال بعده نيفًا وستين سنة ، تلتها حرب الثلاثين عامًا .

ويعنينا من هذا الصلح إقراره حق كل أمير في اختيار المذهب الذي يدين به أتباعه ، فمن أبى من رعاياه الإذعان لمذهبه جاز له أن يهاجر إلى حيث يشاء .

ومثل هذه الحروب الدينية وقعت في سويسرا ، حين نهض بطلب الإصلاح زونجلي ، وانتهت بما يشبه ما انتهت إليه في ألمانيا .

الحروب الدينية التي أثارها فيليب الثاني :

وفي أسبانيا كان فيليب الثاني ت 1598 م من غلاة المتعصبين للكنيسة الكاثوليكية ، فاستعان بمحاكم التفتيش وأطلقها في الناس تأخذهم بالشبهات وتصليهم نارها في غير رفق ولا رحمة ، واستنفد كل جهوده وموارد دولته في استئصال البروتستانتية من العالم الأوربي ، فكان قتاله للهولنديين والإنجليز والهوجونوت في فرنسا :

فأما عن هولندا ، فقد ضاق الشعب بمحاكم التفتيش التي تولته بعذابها وطالب بإلغائها ، وأعلن ثورته واجتاح بعض الكنائس وحطم ما ضمت من صور وتماثيل ، فأرسل فيليب جيشه على ما هو معروف ، ولكن الثورة لبثت قائمة حتى انتهت بإلغاء محاكم التفتيش .

فأما كفاحه مع الإنجليز ، فمرده إلى أن البابا أصدر قرار الحرمان ضد ملكتهم البروتستانتية « أليصابات » عام 1670 م ، وأباح لرعاياها حق التمرد على طاعتها ، وراح أعضاء جمعية اليسوعيين يقتحمون انجلترا ويكيدون لها ، فرأت التخلص من وريثة عرشها الكاثوليكية «ماريه ستورت » وكانت هذه موضع سخط من الرأي العام البروتستانتي يزكي سخطه عليها اشتراكها في مؤامرات ترمي إلى اغتيال اليصابات ، فأصدر البرلمان قرارًا بإعدام كل من يأتمر بحياة مليكته ، أو تدبر المؤامرات من أجله ، ثم دبرت أليصابات مع أعوانها مؤامرة ملفقة مزورة ، وانتدبت لجنة لمحاكمة مارية ستورت من أجل ذلك ، وقررت إعدامها استنادًا إلى أدلة زائفة باطلة .

وعندئذ تحرك فيليب بأسطوله الضخم ــ الإرمادا ــ لملاقاة الإنجليز ، فلما اندحر أسطوله وانتصرت البروتستانتية ، تزعمت انجلترا العالم البروتستانتي كله .

فأما فرنسا فقد فشت البروتستانتية بين شعبها ، وتأثر الكثيرون بمذهب كلفن وسموا بالهوجونوت Huguenots ونهض الكاثوليك بتكوين « العصبة المقدسة » لمناهضة البروتستانتية ، ولبث يشد أزرها في جهادها وحروبها حتى صرفته هزائمه عن تقديم العون لها .

كانت هذه هي مهمة فيليب الثاني في انتصاره للكاثوليكية وتأييده للكنيسة ، ومقاومته للبروتستانتية في مختلف بقاع الأرض ، وقد قضى نحبه بعد أن لطخه الدم نابًا ومخلبًا .. فلنعد إلى تفصيل ما يعنينا مما أسلفنا الإشارة إليه :

مذبحة سان بارثلميو في فرنسا :

ظهرت حركة الإصلاح الديني في فرنسا في مطلع القرن السادس عشر ، وسرعان ما فشت البروتستانتية واعتنقها أتباع كلفن ممن سموا بالهوجونوت فيما

بعد ، كما أشرنا منذ حين ، فاعتزم هنري الثاني أن يستأصل من فرنسا شأفتهم ، وتولاهم باضطهاد دام زادهم إيمانًا بمذهبهم واستبسالاً في الدفاع عنه وحماسة في التبشير به ؛ واتصلت جماعتهم بالسياسة تعين من ناصرهم من رجالها ، وتستعين بهم على التمكين لمذهبها .. وإلى مثل هذا اتجه الكاثوليك ، وقام نزاع انتهى بموجة من الفتن والحروب والمذابح ، لطخت بالدم تاريخ فرنسا إبان هذا العصر .

وأراد تشارلس التاسع ت 1574 أن ينشر الأمن في ربوع البلاد فهادن الهوجونوت ، وأدنى زعماءهم من حضرته ، وتوج هذه الحركة بالرغبة في تزويج أخته من زعيم لهم ، فأثار هذا المسلك ثائرة الكاثوليك .

وفي ليلة الزفاف أقبلت جموع الهوجونوت تترى إلى باريس ، فأطلق الرصاص على زعيمهم ، وعندئذ وطن عزمه على التنكيل بمن حاول اغتياله وخشي الكاثوليك مغبة ذلك ، فعقدوا النية على أن يجعلوا عيد القديس بارثلميو (24 أغسطس من عام 1572 م) مذبحة يبيدون فيها خصومهم . وفي منتصف الليل دق ناقوس كنيسة « سان جرمان » مؤذنًا ببدء المذبحة ، فإذا بأشراف الكاثوليك والحرس الملكي وجموع الجماهير تنقض على بيوت الهوجونوت والفنادق التي أوتهم ، وتأتي على من بها ذبحًا ؛ فلما أصبح الصباح كانت شوارع باريس تجري بدماء ألفين من النفوس ..! وتطايرت أنباء المذبحة المروعة إلى الأقاليم فإذا بها تستحيل بدورها مجزرة تجري بدماء ثمانية آلاف من هؤلاء المساكين ؛ بل قيل إن هذه المذبحة قد أودت بحياة نيف وعشرين ألفًا ..! .

فرنسا بعد المذبحة :

وقد أثار وقوع هذه المذبحة الغبطة والرضا في أوربا الكاثوليكية كلها ، فكاد فيليب الثاني يجن من فرط الفرح عندما بلغته أنباؤها ، وانهالت التهاني على تشارلس

التاسع بغير حساب ؛ وكاد البابا جريجوري الثالث عشر يطير فرحًا ، حتى أمر بأن تسك أوسمة لتخليد ذكراها ، وتوزع على وجوه الشعب وعيونه ..

وقد رسمت على هذه الأوسمة صورته ، وإلى جانبه ملك يضرب بسيفه أعناق الملحدين ، وكتب على الأوسمة « إعدام الملحدين » وأمر البابا — مع هذا — بإطلاق المدافع وإقامة القداس في شتى الكنائس ، ودعا الفنانين إلى تصوير مناظرها على حوائط الفاتيكان ، وأرسل تهنئته إلى تشارلس .

البروتستانت بين التسامح والاضطهاد :

ولكن هذه المذبحة المروعة لم تضعف من شأن البروتستانت ولم توهن من خطرهم ، بل لعلها زادت وقدة العداوة في نفوسهم ، وكان هذا ينذر فرنسا بشر مستطير ، فحاول هنري الثالث ت 1589 أن يستميلهم بمرسوم منحهم فيه حرية العبادة وثمانية أماكن حصينة ، وبعض حقوق أثارت خصومهم ، فضاعفوا مسعاهم حتى نجحوا في حمله على إلغاء هذا المرسوم ..

واستمرت المنازعات الدامية تطحن الفريقين حتى أباد كل فريق الكثير من شيوخ خصومه ونسائهم وأطفالهم ، ودمرت بعض الكنائس والقبور والهياكل وتفككت فرنسا وأضحت جمهوريات صغيرة خربة تضم الكثير من الكنائس المتداعية والقبور المهدمة ..! . ·

ولبث النزاع قائمًا يزداد وقدة واشتعالاً ، حتى إذا كان عام 1584 كان وارث العرش الفرنسي بروتستانتيًا كلفنيًا ، هو هنري الرابع فيما سمي بعد ، وكانت العصبة المقدسة قد نشأت كما أشرنا منذ حين ، لاستئصال البروتستانتية من فرنسا ، ونشبت المعارك الطاحنة بين البروتستانت والكاثوليك ، وعلت صيحة الأحرار من المفكرين والشكاك ، كما سنعرف عند الحديث عن التسامح الديني في فرنسا ، فتحول هنري

الرابع عن البروتستانتية وأصدر مرسوم « نانت » عام 1598 م ، وفيه أباح للبروتستانت حرية العبادة في كل البلاد الفرنسية مع استثناء باريس وبعض الأقاليم ، وقرر مساواتهم بالكاثوليك أمام القانون ، وحرم عليهم سكنى باريس وبعض المدن والمقاطعات ، وأباح لهم تكوين محاكم تشكل منهم ومن الكاثوليك للفصل في قضاياهم ، وصرح لهم بعقد الاجتماعات الدينية والسياسية ، وقد ظلوا قوة حربية لها خطرها في الحروب حتى جاء ريشليو ونزع إلى تقوية الملكية وإضعاف كل قوة تقف إلى جانبها ، ومن هنا كان اضطهاده للبروتستانت في فرنسا ، رغم أنه كان يحسن معاملتهم في غيرها من البلاد ، فحاصر « لاروشيل » وقتل منها ألفًا وخمسمائة بروتستانتي .

وفي عهد لويس الرابع عشر ت 1715 بلغ عدد البروتستانت في فرنسا مليونًا ومائتي ألف نفس ، لهم ستمائة كنيسة يتبعها سبعمائة قسيس ، وقد أهلك منهم لويس الكثيرين بعد اقترانه بمربية أولاده الكاثوليكية المتعصبة ، ثم ألغى مرسوم « نانت » السالف الذكر 1676 م وسلبهم امتيازاتهم المشار إليها من قبل ، وخيرهم بين الهجرة أو الارتداد عن البروتستانتية ، فجلا عن فرنسا أربعمائة ألف أصاخوا إلى نداء ضميرهم ، ولاذوا بهولندا وانجلترا وبروسيا وأمريكا ..

ومع كل هذا لم يستطع أن يستأصل الإلحاد من بلاده ، إذ أصبح الهوجونوت بعد إلغاء المرسوم السالف طريدي القانون مدة قرن كامل ، وكان رجال الدين في فرنسا يبررون سياسة العسف في اضطهاد هؤلاء البروتستانت بالآية الإنجيلية المشار إليها من قبل ، مع الاستعانة بحجج القديس أوغسطين في تبرير اضطهاد المارقين الملحدين .

وفي عهد لويس الخامس عشر خفت حدة اضطهاد الهوجونوت ، ولكنهم كانوا معتبرين خارج القانون وممنوعين من الزواج بالكاثوليك ، حتى صدر قانون التسامح عام 1887 ورفع عنهم الاضطهاد وإن كان قد حرمهم من مزاولة بعض المهن ؛ وسنعود إلى الحديث عن هذا القانون عند الكلام على فولتير وغيره من دعاة التسامح الديني .

النزاع في انجلترا منذ قيام الإصلاح الديني :

وظهرت حركة الإصلاح الديني في انجلترا في مطلع القرن السادس عشر كذلك لبثت الكاثوليكية والبروتستانتية في كفاح متصل ، وكلما اعتلى العرش ملك فرض مذهبه على شعبه ، وسام خصومه العذاب ألوانًا ؛ وكابد البروتستانت والكاثوليك من جراء هذا الاضطهاد ويلاً كثيرًا ، حتى انتهى أمر هذه القلاقل المتلاحقة بانتصار البروتستانتية في عهد أليصابات ، وتزعم انجلترا للعالم البروتستانتي على ما أشرنا من قبل ولكن النزاع قد تجدد حين اعتلى العرش جيمس الأول ت 1625 وانتصر للكنيسة الأسقفية ، فضاق به الكاثوليك من جديد ، فدبروا مؤامرة البارود التي أريد بها نسف البرلمان الإنجليزي أثناء افتتاحه :

تآمر الكاثوليك على نسف البرلمان :

وتتلخص المؤامرة في أنهم استأجروا دارًا مجاورة للبرلمان ، ووضعوا البارود في مخزن كان يقع تحت قاعة اللوردات مباشرة ، وكان المقدر أن يتصل بالبارود شريط من النار يحترق بعد ربع ساعة من إشعاله ، واقترح بعضهم إبلاغ الكاثوليك من أعضاء المجلس نبأ المؤامرة حتى يتخلفوا عن حضور الاجتماع وأبى بعضهم ذلك ، وأدى الخلاف إلى انسحاب البعض واتصلت أنباء المؤامرة بالملك ، وسرعان ما فتشت المحال المجاورة لدار البرلمان ، وفشلت المكيدة كلها قبل البدء بتنفيذها ، وأعدم مدبروها بعد عذاب مرير جسيم ..

اضطهاد الكاثوليك :

وطارد الملك البيوريتان (غلاة المتطرفين من البروتستانت) وجرى على سياسة

تشارلس الأول ت 1649 ، الذي وقعت في عهده الحرب الأهلية ، التي انتهت بانتصار البيوريتان بزعامة كرمويل وإعدام الملك وتأييد المذهب البيوريتاني بعد نشأة حزبي التوري والهويجس اللذين ناهضا الكاثوليكية .

وفي عهد تشارلس الثاني ت 1685 ضاق أحد قساوسة الكاثوليك بالكنيسة الكاثوليكية ، ونزع إلى إقرار الكثلكة في انجلترا وتولية اليسوعيين أمرها ، وقيل إن اليسوعيين قد دبروا مؤامرة أرادوا بها إحراق لندن وذبح خصومهم من البروتستانت ، واغتيال الملك الموالي للكنيسة الأسقفية ، فقبضت السلطات على القس السالف الذكر مع بعض من اشتهروا بالتعصب من الكاثوليك ، وقدموا إلى المحاكمة جميعًا ، ولكن القاضي اختفى أثناء المحاكمة ، ثم عثر على جثته بعد ذلك ، فنجم عن هذا اضطهاد الكاثوليك في عام 1678 ، وهو اضطهاد لا ينفي ما عرف عن هذا العصر من نزوع إلى التسامح .

حرب الثلاثين عامًا :

وفي خلال القرنين الماضيين اللذين ألممنا فيهما بآثار الاضطهاد الديني من خلال الحروب الدامية التي استغرقت أوربا وقعت حرب الثلاثين عامًا (1618 — 1648 م) ، أدى إليها النزاع الديني في ألمانيا أول الأمر وفي غيرها من دول أوربا بعد ذلك ، وانتهت ببواعث سياسية جعلت فرنسا الكاثوليكية تحارب في صفوف البروتستانت ، وفي خلال هذه الحرب عانى البروتستانت العذاب ألوانًا وكابد الكاثوليك من أمر الاضطهاد أشكالاً ، حتى انتهت الحرب بإعطاء كل أمير الحق في اختيار الدين الذي يرى فرضه على رعاياه ! وتم الاعتراف رسميًا بالمذهب الكاثوليكي واللوثري والإصلاحي (مذهب كلفن وزونجلي) واستبعد ما عداها من مذاهب ، وتلاشت من العالم فكرة الحروب الدينية بعد ذلك ..

مبررات اضطهاد البروتستانت :

هذه هي مظاهر الاضطهاد الذي لقيته البروتستانتية بمختلف شعبها إبان القرنين السادس عشر والسابع عشر ، وهي ظاهرة طبيعية تلائم روح العصر الذي وقعت فيه ، وهو عصر ضاق فيه رجال الكنيسة الكاثوليكية بتمرد رواد الإصلاح الديني على سلطانهم ، واستخفافهم بكل ما كان موضع حرمة وقداسة عند رجال الكهنوت ، وكان هذا في نفس الوقت الذي دبت فيه اليقظة في أوربا وتفتحت فيه أذهان الناس في شتى ميادين الحياة ، وكان الارتداد إلى الدين ــ كما يبدو في نصوصه المقدسة ــ مظهرًا من مظاهر النضج العقلي الذي يميز هذا العصر ، لم يكن بد من أن يحتدم الجدل بين هذين المعسكرين ، وأن تشتد وطأته حتى يستحيل إلى معارك دامية يستشهد فيها الكثيرون ، وحروب طاحنة تنهك الأمم والشعوب ، ولم يكن ثمة مفر من وقوع ذلك في عصر يضطرم تعصبًا وتدين الشعوب فيه بدين حكامها .

حقيقة البروتستانت والاضطهاد :

على أن هؤلاء البروتستانت الذين انشغلوا عن الكنيسة الكاثوليكية وأبوا أن يذعنوا لطغيانها أو يصبروا على فسادها ، ونزعوا إلى مقاومة رجالها والكشف عن فساد سلوكهم ، وطالبوا بحق الإنسان في الحكم الفردي والاطلاع على الكتب المقدسة وتفسير نصوصها .. أولئك الأحرار ظاهرًا كانوا في الحقيقة جنودًا للاضطهاد .....! اعتصموا بالتزمت والتعصب ، وسلطوا كل قواهم للتنكيل بخصومهم ! كانوا يهاجمون الاضطهاد يوم أن كانوا في حاجة إلى التسامح ، فلما استقرت قدمهم وتمكن نفوذهم ، استبدوا بخصومهم وساموهم العذاب ألوانًا وبهذا مثلوا نفس الدور الذي مر به خصومهم من الكاثوليك من قبل ! .

موقف المسيحية السمحاء من هذا الاضطهاد :

ومن طريف المفارقات ــ مرة أخرى ــ أن ترتكب السلطات الدينية وأشياعها كل هذه الفظائع الدامية باسم المسيح الذي يقول لمريديه في خطبته على الجبل « طوبى للمساكين بالروح لأن لهم ملكوت السموات .. طوبى للودعاء لأنهم يرثون الأرض ، طوبى للجياع والعطشى إلى البر لأنهم يشبعون ... طوبى للرحماء لأنهم يرحمون ، طوبى لصانعي السلام لأنهم أبناء الله يدعون قد سمعتم أنه قيل للقدماء لا تقتل ، ومن قتل يكون مستوجب الحكم ، وأما أنا فأقول لكم ، إن كل من يغضب على أخيه باطلاً يكون مستوجب الحكم ومن قال يا أحمق يكون مستوجب نار جهنم ، فإن قدمت قربانك إلى المذبح وتذكرت أن لأخيك شيئًا عليك فاترك هناك قربانك ، كن مراضيًا لخصمك ... سمعتم أنه قيل عين بعين وسن بسن ، وأما أنا فأقول لكم : لا تقاوموا الشر بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضًا ، ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضًا ، ومن سخرك ميلاً واحدًا فاذهب معه اثنين . سمعتم أنه قيل : تحب قريبك وتبغض عدوك ، وأما أنا فأقول لكم : أحبوا أعداءكم ، باركوا لاعنيكم ، أحسنوا إلى مبغضيكم ، وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم ، لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السموات ، فإنه يشرق شمسه على الأشرار والصالحين ، ويمطر على الأبرار والظالمين ، لأنه إن أحببتم الذين يحبونكم ، فأي أجر لكم ؟ أليس العشارون أيضًا يفعلون ذلك ؟ وإن سلمتم على إخوتكم فقط فأي فضل تصنعون ؟ أليس العشارون أيضًا يفعلون هكذا ؟ فكونوا أنتم كاملين ، كما أن أباكم الذي في السموات هو كامل[1] » .

بهذا الحديث ــ وتتمته في خطبة الجبل ــ بلغت المسيحية أوج كمالها ، وسمت في مدارج الروحانية إلى أقصى الآماد ، وأحالت كدر الكفاح في الدنيا نورًا وصفاء

---

(1) الإصحاح الخامس في إنجيل متى .

ليس بعده نور وصفاء ، فأين من هذا السمو الروحي البالغ أوجه ، إجرام الكنيسة في اضطهادها المرير الدامي الذي خضبت به تاريخ المسيحية السمحاء ..؟! .

ولكن الذين حملوا الأناجيل نصيبها في تبعة الاضطهاد الديني في المسيحية ، يقولون إن أتباع الاضطهاد من أمثال القديس أوغسطين ، قد استندوا في نزوعهم نحو الاضطهاد ، إلى آيات وردت في الإنجيل ، كقول المسيح لحوارييه أجبروهم على اعتناق دينكم Compelle intrare — أو « لا تظنوا أني جئت لألقي سلامًا على الأرض ما جئت لألقي سلامًا بل سيفًا فإني جئت لأفرق الإنسان من أبيه ، والابنة من أمها ، والكنة من حماتها ، وأعداء الإنسان أهل بيته »[1] ولكن من الإنصاف أن تقول إن الآيات التي أسلفناها في عظة الجبل ، هي رمز المسيحية وطابعها الغلاب .

على أن قصة الاضطهاد لم تكمل فصولها بعد ، لأن رواد الإصلاح الديني قد أبلوا في مجال هذا الاضطهاد أحسن بلاء ! فلنشرح موقفهم على قدر ما يسمح المقام .

---

(1) انظر إنجيل متى ، الإصحاح العاشر ؛ الآيات 34 - 36 .

5 ـ الاضطهاد عند البروتستانت

نصيب العقل في حركة الإصلاح الديني ـ الإصلاح والمنطق الديني ـ بواعث الإصلاح الديني ـ تبعات الكاثوليك والبروتستانت في الدعوة للاضطهاد ـ دعوة لوثر للاضطهاد ـ موقف البروتستانت من إحراق سرفيتوس ـ البروتستانتية وحركات التنوير ـ تعقيب .

* * *

نصيب العقل في حركة الإصلاح الديني :

إذا كانت الكاثوليكية قد ناصبت حرية الضمير والفكر العداء ، وأصلت أهلها نارها في غير رفق ، فقد احتذت البروتستانتية حذوها وإن كانت حاجتها إلى السلطة الزمنية قد قصت جناحها وعرقلت نشاطها ، وقد يبدو هذا مثارًا للدهشة لأن رواد هذه الحركة كانوا يلوذون في أول أمرهم بمنطق العقل ويعتصمون بشريعته في مهاجمة خصومهم من رجال الأكليروس ، والكشف عن فضائحهم وسوءات تصرفاتهم ،

وكانوا يهاجمون الاضطهاد ويأبون أن يكون للكنيسة سلطان على ضمائر الناس وقلوبهم ، وقد خدعت البعض هذه الظاهرة وأعمتهم عن كنه القوى الخفية التي تسيرهم ، وظنوا وهما أن العقل كان رائدهم وأنه الهادي إلى حركتهم ، وسار في ركبهم بعض من عرض للبحث في دعوتهم ، فقالوا إن ثورتهم حركة تولاها مفكرون سبقوا زمانهم بما امتازوا به من سداد التفكير ونفاذ النظر ؛ وقد تخلف هذا الظن ولبث قائمًا في عقول بعض المتأخرين من الكتاب ، فمن ذلك قول لافيس ورامبو في كتابهما عن « التاريخ العام » عندما عرضا لتفسير الإصلاح الديني : إنه نشأ من قراءة الإنجيل ، وأدت إليه « تأملات فردية أورثها قلوب البسطاء عقل جريء » ولعل الأصح أن نقول مع بيوري ولوبون ومن إليهما من الباحثين ، إن حركتهم كانت حركة دينية وليست عقلية ، وأنهم كانوا رجال دين عبروا عن روح عصرهم وروح العصر السابق لهم ، ولم يكونوا رجال فكر سبقوا زمانهم ، ومن أجل هذا لازمتهم سوءات الحركات الدينية من تعصب ذميم لكل ما يألفون ، وضيق صدر بكل جديد .

الإصلاح والمنطق الديني :

نشأت حركة الإصلاح الديني عن بواعث عقلية ، ولكن الاستدلال المنطقي ليس هو الذي أدى إلى نضجها ، وإنما قامت على عواطف وتدينات وجرت على منطق ديني مشبع بالمشاعر والعواطف لا تربطه بمنطق العقل صلات ! بل إن عناصر التأمل والتفكير فيه ضئيلة ، ولم يكن هذا الإصلاح في بدايته دعوة إلى حرية التفكير ، بل كان مجرد انتقاد ينصب على تصرفات رجال الدين والتبشير بالتزام العمل بما تقضي به نصوص الإنجيل ، وربط العقل بقيودها ، ومن تتبع هذه الحركة لاحظ أن البلاد التي بسط فيها الإصلاح الديني نفوذه ، قد أخذ فيها الملوك مكان البابوات حقوقًا وسلطانًا ! وقد أتيح لكلفن أن ينشئ في جنيف حكومة جمع فيها بين

السلطتين : الروحية والزمنية ، وسلط قواه على الشعب حتى يدين بما يدين به المصلح ..! إن فهم هذه الحركة في ضوء المنطق الديني يتكفل بتفسير الغامض من ظواهرها ، والكشف عن سر الاضطهادات التي أنزلها زعماؤها بخصومهم من المتدينين ورواد العلم والفلسفة ، إذ ليس بغريب على من قاده خلق التدين وتسلطت عليه الحماسة الشديدة وكان شأن العقل في تصرفاته ضئيلاً ، أن يكون على خلق « كلفن » الذي كان لا يتردد قط في إعدام من خالفه في مذهبه ، ولا يستحي أن يقول إن الله يريد أن يقصي الإنسان الرحمة الإنسانية بعيدًا عن قلبه عندما يعتنق الجهاد في سبيله .! .

بواعث الإصلاح الديني :

كانت حركة الإصلاح صدى لروح العصر ولم يكن لأهلها سبق عقلي على أهل زمانهم ، والذي ساعد عليها هو اندحار قوة البابا في أوربا ونمو الملكيات القوية التي عملت على فصل الكنائس القومية عن روما ، وقد انتصر الإصلاح الديني في ألمانيا الشمالية ، لأن الأمراء انتصروا له ليفيدوا من مصادرة أملاك الكنيسة ونحوها . وهذا بالإضافة إلى أن سببه الرئيسي يرجع إلى فساد الكنيسة منذ زمان ، واهتمام البابوات بمصلحتهم الدنيوية ، وقد كان كل مفكر في أوروبا يشعر منذ القرن الرابع عشر بهذا النقص ويعرف وجه الحاجة إلى إصلاح الكنيسة ، فظهور لوثر وأمثاله كان تعبيرًا عن روح عصرهم وما سبقه ، ولم تكن ثورة عقل متمرد على عقيدة ، بل كانت ثورة شعور راسخ النطاق يناصب الكثلكة العداء ، ومن أجل هذا كان من الخطأ أن يقال إنه مكن لحق الفرد في إصدار الأحكام المستقلة ، وأنه أقر الحرية الدينية ، « فليس من شيء كان أبعد عن عقول قادة الإصلاح الديني من التسامح مع النظريات المخالفة لآرائهم » وإذا كانوا قد قوضوا سلطان البابا ، فقد أحلوا مكانه سلطة الإنجيل ، ولكنه كان الإنجيل كما فهمه لوثر أو كما عرفه كلفن ؛ ولم تكن

الحروب الدينية التي ثارت ترمي إلى إقرار الحرية الدينية ، بل كانت نزاعًا بين معتقدات دينية فيما يقول بيوري ولوبون وغيرهما من المفكرين .

تبعات الكاثوليك والبروتستانت في أمر الاضطهاد :

ولعل من الإنصاف للسلطات الكاثوليكية أن نقول إنها لم تناقض نفسها بما زاولته من اضطهاد ، لأن من حقها أن تحمي الدين وتذود عن تعاليمه كل عدوان وإن أخطأت سبيل هذا الدفاع ! أما السلطات البروتستانتية فإن اضطهادها للعلم ، يتنافى صراحة مع المبادئ التي وضعها أهلوها أساسًا لحركتهم في الانشقاق عن الكنيسة الكاثوليكية ، كإقرار المبدأ القائل بحق الحكم الفردي لكل إنسان .

ويضاف إلى هذا ثلاثة أمور ينبغي ألا نهملها عند تقدير التبعة التي يحملها كل من الطائفتين ، أولها أن البروتستانت لم يؤتوا من السلطان ما كان للكاثوليك ، وعندما تهيأت لهم هذه السلطة ــ على يد « كلفن » في جنيف مثلاً ــ لم يكونوا أقل وحشية من الكاثوليك ، وثانيها أن الكاثوليك إذا كانوا قد حرموا دراسة الحقائق التي اهتدى إليها علم الفلك الحديث في أوروبا الكاثوليكية إبان القرنين السابع عشر والثامن عشر ، فإن السلطات البروتستانتية قد أنكرت الحقائق التي كشفها علم طبقات الأرض وعلم الحياة والأنثروبولوجيا ، وحظرت الجامعات الأمريكية تدريسها إبان القرن الغابر ــ فيما يقول هوايت A . D . White ، ولم يكن البروتستانت أقل تشبثًا بالمعنى الحرفي للنصوص المقدسة من الكاثوليك ، وقد بلغ أمر هذا التعصب بكبيرهم « لوثر » أن اعتبر هذه النصوص في معناها الحرفي الظاهر هي المصدر الوحيد للعلوم الطبيعية كلها مع أن العلم الطبيعي كان شعار الفلسفة والتعليم الحديث عامة في عصر لوثر ، ومع هذا رفض التأويلات المجازية والصوفية ، وقرر أن العلوم الطبيعية أداة لخدمة التقوى والصلاح ..! وإلى مثل هذا الاتجاه ذهب « كلفن » فيما يقول الأستاذ هوايت وغيره من المفكرين .

وثالث الأمور التي ينبغي مراعاتها عند تقرير التبعة التي يحملها الإصلاح الديني في فظائع الاضطهاد ، أن الإصلاح قد نهض وانتصر بعد اضمحلال نفوذ الكنيسة الكاثوليكية واندحار السلطان البابوي ، وتيقظ الأمم والشعوب ونزوع الناس إلى تحكيم العقل في كل شيء ، فكان الطبيعي أن يكون اضطهاد المصلحين لخصومهم أخف حدة وأقل فظاعة .

حماسة البروتستانت للاضطهاد :

أقرت البروتستانتية الاضطهاد مبدأ مشروعًا لمقاومة الهرطقة وتوكيد الإيمان الصحيح ، وقد أكد لوثر هذا المبدأ في خطاب له إلى فيليب أمير هس **Philip of Hesse** ووضع كلفن وبيزا **Beza** وجوريور **Jurieu** كتبًا أيدوا فيها مشروعية الاضطهاد ، واستند نوكس **Knox** باسكتلنده إلى « العهد القديم » — أي التوراة — وأعلن أن العدالة تقضي بإعدام الذين ثبتت عبادتهم للأوثان ، وأن من تهاون من الحكام والناس في اضطهاد الملحدين عرض نفسه لغضب الله . وقد أقرت حق الحكام المدنيين في معاقبة المارقين ، قوانين الإيمان في سويسرا واسكتلندا وبلجيكا وسكسونيا .

وقد غلبت روح التعصب والاضطهاد أكثر المصلحين ، وعلا صوتها في كل بلد انتصرت فيه حركتهم ، إذا استثنيت زعيمين ضاقا بالاضطهاد ونفرا من الكبح والقمع ، ونزعا إلى تأييد التسامح ، هما زونجلي **Zwingliius** وسوسينوس **Socinus** .

طاردت البروتستانتية بمختلف شعبها أحرار الفكر ، وتعقبت خصومها ومن خالفوها الرأي ، فسلطت حقدها في هولندا على ديكارت الذي مكن للوحي الديني وأقر الإيمان أساسًا لكل فلسفة يقينية ! وحظرت في البلاد التي انتصرت فيها تدريس النظريات التي لا تقر بصحتها ، ونكلت بأهلها في غير رحمة .

دعوة لوثر للاضطهاد :

وإذا كان لوثر قد احتج على كبح الآراء وإحراق الملحدين ، فقد كان هذا يوم كان يخشى أن يكون مع جماعته ضحية هذا الاضطهاد الكنسي الدامي ، فلما أمن شر خصومه ، وقوى مركزه وتوطد نفوذه أعلن رأيه الصحيح ، فأوجب على الدولة أن تفرض ما يبدو لها رأيًا سليمًا ، وأن تستأصل الهرطقة لأنها رجس من عمل الشيطان ، وأوجب على الناس أن يطيعوا أميرهم في أمور دينهم ودنياهم على السواء ، وصرح بأن غاية الدولة حماية الدين من المارقين ، وجاهر بإعدام طائفة منكري التعميد Anabaptists بالسيف بعد انسلاخها عنه ، وبهذا أدت عقيدة الخلاص إلى نتيجة واحدة عند الكاثوليك والبروتستانت على السواء ! .

موقف البروتستانت من إحراق سرفيتوس :

أما كلفن ـــ الزعيم الثاني للبروتستانتية ـــ فقد كان أشد تعصبًا لآرائه وضيقًا بمخالفيه ، وقد اتفق في الرأي مع لوثر في إقرار السلطة المطلقة للحاكم ، وانتصر لسياسة الدولة عن طريق الكنيسة ، فأيد بذلك الحكومة التيوقراطية التي يتولاها رجال الدين الذين يعملون بما يوحى إليهم ، بل أنشأ حكومة من هذا النوع في جنيف فجمع بذلك بين السلطتين : الروحية والزمنية ، وتمكن بهذا من أن يسحق حرية الضمير والنظر العقلي وينكل بخصومه نفيًا وحرقًا وإعدامًا ، وموقفه من مصرع « سرفيتوس » أعدل شاهد على ما نقول ، فقد كتب سرفيتوس الإسباني يهاجم عقيدة التثليث : الأب والابن والروح القدس ، وسجن في ليون لأسباب كان منها دسائس كلفن ، ولكنه فر من سجنه ولاذ مسرعًا بجنيف حيث يقيم كلفن حكومته ، فاعتقل وقدم للمحاكمة ، وأدين وصدر قرار بإعدامه حرقًا عام 1553 م . فاستخف الطرب المصلحين وباركوا بالإجماع هذا الإثم سوى رجل واحد برم به وأعلن رأيه

متخفيًا ! أثنى ملانكتون Melanckton على هذا العمل كمثل طيب للأجيال التالية[1] .. ! وكتب بولنجر Bullinger وفارل Farel يشيدان في غمرة من الفرح بهذا العمل المجيد ! ووضع بيزا Beza رسالة طيبة ذاد فيها عن هذا العمل ! وكان الرجل الوحيد الذي أعلن ضيقه بذلك ، هو كاستليو Castellio أو شاتيلون Chatillon ، فكان أول بطل للحرية ، سباق إلى مجال المذهب العقلي ، مع أنه تخفى تحت اسم Martin Bellins اتقاء لشر المتعصبين ! وقد اتصلت في بدء حياته أسباب الصداقة بينه وبين كلفن ، ولكنه هاجم نظريته في القضاء الأزلي ، وترجم الإنجيل إلى اللاتينية وتناوله بالنقد الحر وأهاب بالعالم المسيحي أن يتحرر من قيود التعصب ويعتنق مبدأ التسامح المطلق ، القائم على منطق العقل ووحي العدالة . ومن هنا كان ضيق كلفن به وحقده عليه ، فاستعاض كاستليو عن صداقته بصداقة زميله في طلب التسامح « سوسينوس » .

ويصرح بيزا بعد مصرع سرفيتوس ، بأن كاستليو وسوسينوس كانا الوحيدين اللذين ضاقا بإحراقه ، ولكن « ليكي » ينكر صحة ذلك ، ويستند في هذا إلى نصوص من بيزا نفسه ، ومن هلام Hallam الذي كشف في كتابه « تاريخ الآداب » عن ثلاثة أو أربعة كتب أو رسائل كتبت في هذا الوقت تأييدًا للتسامح ، فيما يقول الأستاذ ليكي Lecky .

ومن المؤرخين من يقول إن ميل البروتستانتية للاضطهاد كان في المراحل الأولى من حياتها ، وأنها ما لبثت أن نزعت إلى التسامح وبشرت بالحرية الدينية ، وأن كلفها بالاضطهاد في أيامها الأولى قد ورثته عن الكنيسة الرومانية ! .

ونحن مع تسليمنا بأن البروتستانتية كانت بعد مراحلها الأولى أسبق إلى طلب

---

(1) ولكن هذه الأجيال قد أحست بالمهانة لارتكاب هذا الإثم حتى شعر أتباع كلفن في صيف عام 1903 أنهم مضطرون لإقامة ضريح تذكاري لسرفيتوس ، تكفيرًا عن خطأ كان خطيئة العصر كله .

التسامح والدعوة للحرية الدينية ، نرى أنها بدأت حياتها بمهاجمة الاضطهاد وسرعان ما ارتدت إلى التعصب وزاونت القمع بمجرد أن تهيأت لها سلطة تمكنها من ذلك ! .

البروتستانتية وحركات التنوير :

لا تمثل عقائد البروتستانتية حركة تنوير Enlightnment فقد عادى الإصلاح الديني حرية النظر العقلي كما قاوم حرية الاعتقاد ، وكان العلم متى حاد عن ظاهر الإنجيل ، تساوى في التصدي لمقاومته لوثر زعيم البروتستانت والبابا الرئيس الأعلى للكاثوليك ! وقد أخفق تطور العلم إخفاقًا معيبًا في ألمانيا التي انتصر فيها ركب البروتستانتية .

وقد أقرت البروتستانتية بمختلف شعوبها — من لوثرية وكلفنية وإنجيلية — عقوبة الإعدام قانونًا يخضع له كل من خالف عقيدتها ، وقد قاوم زعيمها الأول — لوثر — المذهب الأرسطاطاليسي وسمى صاحبه بالخنزير الدنس الكذاب ، وقال عن كوبرنيكوس — وهو أول رائد عرفه تاريخ علم الفلك الحديث — إنه أول منجم مأفون مصاب بمس ، ولم يكن الزعيم الثاني — كلفن — بأرحب صدرًا من صاحبه وإن كان أقصر منه باعًا في مجال السباب ، فقد قاوم حرية الضمير والنظر العقلي ، ونكل بمن وقع في يده من أهلها شر تنكيل ، ومن ذلك فقد أعلن تكفير كل من أنكر القول بأن الأرض — لا الشمس — مركز الكون ! فيما يروي هوايت وغيره من مؤرخي النزاع بين الدين والعلم .

تعقيـــب :

شب الصراع الآثم بين الكاثوليك والبروتستانت ، وأنزلت الكنيسة برواد الإصلاح الديني وأتباعهم عذابها الأليم في غير رفق ، وأضرمت نيران الحروب التي

زهقت فيها نفوس هؤلاء الرواد وأريقت دماؤهم ــ على كره من المسيحية السمحاء ــ كما عرفنا في الفصل السالف ، ولكن المصلحين أثاروا غضب الكنيسة بمبادئهم في إقرار حق الحكم لكل إنسان ، ومقاومة السلطة الكنسية المستبدة .... لكنهم أهملوا شأن العقل بعد المرحلة الأولى من جهادهم ، وانساقوا وراء « منطقهم الديني » فأنكروا المبادئ التي نادوا بها ، وطاردوا خصومهم بنفس الروح التي طاردهم بها خصومهم من قبل ..!! جاهروا بالتعصب لمبادئهم ونزعوا إلى التنكيل بالخارجين عليهم ، وضاع في عباب هذه الثورة مبدأ التسامح والحرية الدينية ، حتى نهضت للدفاع عنه بعض الشيع الدينية التي عدت في نظر المصلحين الدينيين في زمرة الخوارج المارقين ..! وقد أيد قضيتهم في الحرية الدينية دعاة الشك وأتباع المذهب العقلي كما سنعرف في الفصل التالي .

التسامح الديني

1 ــ فجر التسامح الديني

مساهمة الإصلاح الديني في تأييد الحرية الدينية ـ فضل الصوصنية على ابتداع الحرية الدينية ـ الفصل بين السلطتين عند منكري التعميد ـ بدء التسامح في انجلترا ـ رواد التسامح في انجلترا ـ التسامح الديني في فلسفة لوك ـ التسامح في انجلترا بعد القرن السابع عشر ـ تداعي الاضطهاد في فرنسا بظهور الشك ـ رواد التسامح في فرنسا ـ حملة فولتير على التعصب الديني ـ دفاع فولتير في قضايا التعصب : مأساة جان كالا ـ دفاع فولتير في هذه المأساة ـ دفاعه في مأساة سيرفين ـ حقيقة التسامح عند فولتير ـ موقف روسو من الاضطهاد ـ التسامح المطلق في الثورة الفرنسية ـ مغزى تاريخ التسامح في انجلترا وفرنسا ـ انتصار التسامح الديني في ألمانيا ـ أثر ألمانيا في غيرها من الدول ـ قيام الحرية الدينية في أوروبا في القرن الغابر ـ أسباب اضطهاد اليهود ـ تعقيب .

* * *

أشرق التسامح وآذن التعصب بالمغيب ، يوم نضج وعي أحرار الفكر واشتد ضيقهم بالاضطهاد ، فتكتلت جهودهم واتجهت إلى القضاء عليه بتقويض النفوذ الذي تهيأ لأهله ، وإخماد التعصب الذي اضطرمت في قلوبهم جذوته ، وكان

« الشك » أفتك سلاح شهره العقليون في وجوه المتزمتين ، وحاربوا به الرغبة في الاضطهاد . فلنمهد لبيان هذا بكلمة عن مدى المساهمة التي قدمها رواد الإصلاح الديني في تأييد الحرية الدينية :

مساهمة الإصلاح الديني في تأييد الحرية الدينية :

مهدت الطريق إلى الحرية الدينية ، مبادىء الإصلاح الديني على غير قصد من أهلها ، ومن غير أن يهدفوا مباشرة إلى تأييدها ! .

ولم يكن في الإمكان أن تنتصر قضية الحرية على السلطة الدينية . ولكن هذه السلطة قد ضعفت بتعدد الآلهة وكثرة السلطات اللاهوتية وزعزعة التقاليد الدينية بحركة النقد التي أثارها الإصلاح الديني ، وهذا بالإضافة إلى أن السلطة الإكليركية العليا كانت في الدولة البروتستانتية في يد الحاكم ، ولهذا الحاكم مصالحه الدنيوية وظروفه السياسية التي تضطره إلى العدول عن تعصبه الديني أحيانًا .

على أن الثورة البروتستانتية في وجه الكنيسة ، كانت تستند إلى إقرار حق الحكم الفردي وهو مبدأ الحرية الدينية ، ولكن المصلحين قد أكدوا هذا الحق لأنفسهم وحرموه على غيرهم بمجرد أن صاغوا مذهبهم ووطدوا مركزهم ، وكان في هذا التناقض الصريح في موقفهم ما يوهن نفوذهم ويضعف سلطانهم ، إذ لماذا يخلع الناس نير السلطة الكنسية في روما ، ليخضعوا لسلطة لوثر على حداثة عهده ...؟ إن التمرد على روما ينبغي أن يقوم على العقل وحده ، وما دام العقل أساس التمرد فلن تقف الثورة عند لوثر أو كلفن أو غيرهما من الثائرين ، إلا إذا افترض الناس أن أحدهم يصدر عن وحي وإلهام ! وإذا رفض الناس الخرافات كما رفضها هؤلاء المصلحون ، فلا شيء قط — مع استثناء سلطتهم — يمنع من رفض الخرافات التي تمسك بها دعاة الإصلاح ، على أن دعوتهم في رفع احتكار الكنيسة لتفسير الكتاب المقدس وإباحة

حق تفهمه للناس جميعًا ، لفتت أنظار الناس إليه ، وإذا كانت دراسة الإنجيل لم تصادف قبولاً في الجامعات الألمانيةحتى القرن السابع عشر ، بل لم يجد الإنجيل بين الجمهور قراء كثيرين قبل القرن الغابر ، فإن اتجاه الناس إلى دراسته وإن جاء متأخرًا ، قد أفضى إلى حركة من النقد كان لها أثرها في إقرار الحرية الدينية ، ومن ثم في توكيد النظر العقلي ، وقد عاش النقد الإنجيلي في جو بروتستانتي ، ومن هذه الناحية كان المذهب البروتستانتي أداة لإقرار كفاية العقل للتفكير وتوكيد النزعة العقلية ، وهذا هو الذي خدم قضية الحرية على غير قصد من دعاة الإصلاح ـــ فيما يقول بيوري ـــ .

وقد مكن لهذه القضية وخدمها عن طريق مباشر طائفة من المصلحين اتهمها البروتستانت والكاثوليك بالإلحاد ، وأغفل الناس أمرها حتى أصبح الذهن لا يلتفت إليها إذا ذكر الإصلاح الديني ، وهذه الطائفة هي « الصوصنية » ، فلنقف عندها قليلاً :

فضل الصوصنية على ابتداع الحرية الدينية :

« الصوصنية » طائفة من مصلحي الطليان الذين انشقوا على الكنيسة في روما إبان القرن السادس عشر ، وأنكروا عقيدة التثليث وأقاموا مبدأ التوحيد في المسيحية وأنكروا ألوهية المسيح ، ونسبوا الربوبية إلى الآب (وهو الأقنوم الثاني في الثالوث الأقدس) ، فقاومت الكنيسة حركتهم وأفلحت في قمعها ، وفر الكثيرون منهم متهمين بالهرطقة إلى سويسرا ، ولكن المصلح المنشق على الكنيسة ـــ كلفن ـــ قد طاردهم بتعصبه الذميم فلاذوا بترنسلفانيا وبولندا فرارًا ، وهناك أذاعوا عقيدتهم التي أقاموها على مبدإ « التوحيد » .

وقد صاغ عقيدة الصوصنية « فوستو سوزيونو » Fausto Suzziono الذي أطلق

اسم « سوسينوس » Socinus علمًا عليه ؛ وقد كانت أصول الإيمان عند طائفته (1574) تقضي بإنكار الاضطهاد ورفض القوة أداة لخدمة الدين وتوكيد عقائده ، وكانت هذه نتيجة طبيعية أدت إليها النظريات الصوصنية ، إذ كان أتباعها ــ على عكس لوثر وكلفن ــ يبشرون بحرية الضمير والتفكير ، ويلحون جادين في منح كل إنسان حق الحكم الفردي في تأويل الكتاب المقدس ، فمكنوا بهذا للنزعة العقلية التي كانت تعوز عقائد التثليث ، وساهموا بهذا في الدعوة لحرية النظر العقلي وتوفير أسباب الطمأنينة لرواد الفكر الحديث .

وتحت تأثير الروح الصوصني أعلن كاستليون السافويي Castellion of Savoy مبدأ التسامح في رسالة شهر فيها بتعصب كلفن وحقده ، وندد بموقفه من إحراق سرفيتوس وسخر من ذلك الاهتمام الذي توليه الكنائس للمسائل الغامضة ، كعقيدة التثليث والقضاء والقدر ، وأعلن أن الدين إذا صاحبه الاضطهاد كان لعنة ومجلبة للمحن ! .

وقد طارد الصوصنية خصومهم في بولندا فانطلقوا إلى ألمانيا وهولندا ، وكانوا وحدهم الممثلين لمبدإ التسامح ، فاعتنقه منهم في ألمانيا الأنابابتست ــ منكرو التعميد ــ وهم طائفة دينية ثورية تابعت لوثر في أول أمرها ، ثم لم يرقها منه اعتداله ولينه فانسلخت عنه ، وقاتلتهم الكنيسة الكاثوليكية قتالاً داميًا انتهى بسحقهم ؛ كما سلم بهذا المبدإ في هولندا طائفة من أتباع أرمانيوس الهولندي الذين آمنوا بالإصلاح الديني .

على أن مذهب الصوصنية وإن كان قد ساهم في تحرير الضمير والنظر العقلي فقد شجع قيام الاتحاد الوثيق بين الدولة والكنيسة ؛ مع أن الاتجاه الذي يمكن لحرية الضمير والعقل ويرفع كل عرقلة في طريق أهلها ، هو الفصل بين السلطتين : الزمنية والدينية ، وهذا هو الرأي الذي ذهب إليه جماعة الأنابابتست ، منكري التعميد .

الفصل بين السلطتين عند منكري التعميد :

لم يكن الرأي العام في أوربا من النضج بحيث يسيغ مبدأ الفصل بين السلطتين ، إذ انعقد رأي الهيئات الدينية القوية على أن التسامح ليس إلا تغافلاً ممقوتًا ! وإن كان مبدأ الفصل قد عرف إبان القرن السابع عشر ، في ركن صغير من العالم الجديد وراء الأطلنطي ، عند البيوريتان الذين طاردتهم الكنيسة الإنجليزية وحكومتها فأقاموا مستعمرات في نيو إنجلند ، واعتصموا بالتعصب وطاردوا الإنجيليين والكاثوليك على السواء ، بل امتد تعصبهم إلى منكري التعميد والكويكرز ؛ ولكن أحدهم ــ وهو روجر وليامز ــ قد أخذ عن أتباع أرمانيوس الهولنديين فكرة الفصل بين الدولة والكنيسة ، وأنشأ مقاطعة « بروفيدانس » وجعلها ملاذًا للمضطهدين ، ووضع نظامًا ديمقراطيا قرر فيه منع الحكام من التدخل في الشئون الدينية ، وقامت مدن في جزيرة رودس على هذا النمط ، وأيد تشارلس الثاني (ملك انجلترا) (عام 1663 م) هذا الدستور بمرسوم أذن فيه لرعاياه بأن يدينوا بأي مذهب مسيحي يروق لهم ..! وأن يباشروا حقوقهم السياسية كاملة غير منقوصة ، فكان روجر وليامز بهذا ؛ صاحب الفضل في إقامة أول حكومة حديثة ، زاولت التسامح الصحيح ، وقررت إقصاء الشئون الدينية عن متناول الحكومة المدنية .

وكان أنصار الحرية الدينية في مختلف بقاع العالم المسيحي يجاهدون لإقرارها ، فينتصر التسامح حينًا ويتلاشى أحيانًا ، حتى اشتد ساعد أحرار الفكر وعلا صوتهم وآتت دعوتهم أكلها .

وقد كان نجاح التسامح الديني في تاريخ العالم البروتستانتي والكاثوليكي على السواء مرهونًا بقيام المذهب العقلي ونموه ، وتقبل بعض الناس لدعوته ، لأنه قوض أسس القمع الشديد وهاجم نفوذ الذين يزاولون الاضطهاد ، وزعزع الأسس التي بنوا عليها دعوتهم .

بدء التسامح في انجلترا :

وقد تجلت النزعة إلى حرية الفكر وتخليصه من القيود وتحريره من ضغط السلطات إبان القرن السابع عشر ، فيه اشتد النزوع إلى اكتشاف الحقيقة ومهاجمة الحكم المبتسر ، وتقويض السلطة التي كانت لا تزال ــ برغم ما وجه إليها من حملات ــ مصدرًا للحقائق . وقد مهد هذا كله لانهيار الاضطهاد بتداعي الأسس التي قام عليها .

وفي هذا القرن انبعثت صيحات الحرية في انجلترا طولاً وعرضًا ، واتجهت الهمم في مجالي السياسة والدين إلى العمل على تحقيقها ، وفي عهد تشارلس الأول ت 1649 نهض حزب البيوريتان على أكتاف المتطرفين من البروتستانت وكثر أتباعه ، واضطلعوا بقتال الملك تحت زعامة كرمويل ليلزموه الإذعان لرأي الشعب ، ويحولوا دون إدخال المذهب الأسقفي وفرضه على الاسكتلنديين بالقوة .

وقد حاول كرمويل أن يقر سياسة التسامح ، وكان الإنجليز على خلاف ، ففريق المستقلين Independents الذي يناصر كرمويل كان يطالب بالتسامح ، ويرغب في أن يمنح الكاثوليك حرية الاعتقاد ! وقد نجح في عام 1653 في إقرار هذا الاتجاه ، وذهب كرمويل ــ مؤيدًا من المستقلين ــ إلى أبعد من هذا ، فأقر التسامح على اليهود وأذن لهم بمزاولة عباداتهم ... وأما المهتدون أو أتباع الكنيسة المشيخية « البرسبتريون » Presbyterians فقد كانوا يميلون إلى أن يقصروا حق التسامح على الذين يسلمون بأصول المسيحية ومبادئها الجوهرية وقد حاولوا في عام 1648 أن يستصدروا من البرلمان قرارًا بإعدام كل من بشر برأي يتعارض مع عقيدة التثليث والتجسد ، وبالسجن مدى الحياة لكل من بشر بمذهب أرمانيوس[1] البابوي

---

(1) هو كاهن هولندي مات عام 1609 وقد أنكر نظرية كلفن في القضاء الأزلي المطلق وقال بسبق اختيار الله لمختاريه .

أو بعقائد الكويكرز ، إلا إذا قدموا كفالة أو ضمانة بعدم تعليم هذه العقائد بعد[1] .

رواد التسامح في انجلترا :

وفي هذه المرحلة من الزمن نهض بالدعوة إلى التسامح ثلاثة من المفكرين البارزين هم هارنجتون Harrington وملتون Milton وتايلور Taylor . وقد أدرك أولهم أن الحرية السياسية لا تستقيم بغير حرية دينية مطلقة ، لأن الحرية الدينية تتضمن حرية الضمير ، وهذه تتضمن بدورها الحرية المدنية ، وتكون حرية الضمير متى تمكن الإنسان من مزاولة عباداته ومباشرة تعاليم دينه وفقًا لإملاء ضميره وحده ، من غير عائق أو تدخل من الحكومة .

وإذا كان هارنجتون قد تحرى الدفاع عن حرية الضمير في أوسع معانيها ، فقد تصدى ملتون لتأييد هذه القضية والدعوة إلى فصل الكنيسة عن الدولة وقد بدا هذا في رسالته القيمة التي ذاد فيها عن حرية النشر[2] .

وقد كان للفردوس المفقود Paradise lost عند ملتون أوفر حظ في إيقاظ الحرية في نفوس الناس . وأما دفاعه عن التسامح فقد أقامه على أساس أن قيام الحق لا يتطلب الاضطهاد ، بالإضافة إلى أن الاضطهاد يعوق اكتشاف الحقيقة ...[3] إلخ .

ولكن ملتون مع هذا يستثني الكاثوليك في تطبيقه لمبدأ التسامح ا بحجة أن عباداتهم

---

(1) كان الهولنديون يواصلون جهودهم لقمع حرية الضمير ، وفي سنة 1645 وجه برلمانهم إلى البرلمان الإنجليزي خطابًا يحثه فيه على عدم التسامح مع أي طائفة أو شيعة دينية تتعارض تعاليمها مع مبادئهم ، ثم أذاع في نفس الوقت منشورًا يهاجم فيه التسامح وحرية الضمير ! .

(2) انظر رسالة Of True Religion, Heresy, Schism, Toleration 1673 .

(3) انظر رأيه في كتابنا قصة النزاع بين الدين والفلسفة .

وثنية ، وأن « العهد القديم » قد نهى عن عبادة الأوثان .

ثالث المفكرين السالفي الذكر كان تايلور ، ويعتبر كتابه Liberty of Prophesying مع استثناء كتاب شلنجويرث[1] ــ أعظم مساهمة قدمتها الكنيسة الإنجيلية في الجهاد من أجل التسامح ، إن فيه دفاعًا عن الكاثوليك ونزوعًا إلى التسامح معهم ما لم يعلنوا جهرًا أنهم يبيحون لرعايا الأمير الملحد أن يقتلوه أو أن يبشروا بعدم التعاون مع الملحدين ، أو يزعموا أن في وسع البابا أن يغفر ذنوب المتمردين من رعايا الحكام ! والكتاب بعد هذا فيض من الرحمة والرقة يجري بالخيال الخصب والعواطف الكريمة عذبًا سلسبيلاً . وهو يقيم حجته في طلب التسامح على أن القضايا التي يقول بها رجال اللاهوت لا يسهل استنباطها من الكتاب المقدس ، فمن الخطأ البين أن يطالب الناس بالتسليم بها ، وعقيدة الرسل تتضمن المعتقدات التي يمكن التدليل على صحتها ، وكل خطأ يقع فيما وراءها من مسائل لا يؤثر على عقيدة الخلاص ، ومن هنا وجب التسامح مع من يخطئ في مثل هذه المسائل الثانوية . ولكن تايلور قد وضع كتابه السالف وهو في منفاه ، ولما استعادت الكنيسة نفوذها تخلى عن بعض مبادئه ! وكان في هذا ما يسيء إلى سمعته .

وفي الحق إن مرجع الفضل في دفاعه عن التسامح إلى أنه يدين بالشك ، والشك لا يساوره إلا لأنه يدين بالعقل ويقول بكفايته ، وحسبه هذا أداة لتقويض التعصب والاضطهاد .

وقد استمرت الدعوة إلى التسامح طوال الفترة التي أعيدت فيها الملكية إلى تشارلس الثاني ، وبدت هذه الحركة في مدرسة من أحرار الفكر في لندن ، تهدف إلى التوفيق بين الشيع الدينية في ضوء المنطق العقلي ، هي Latitudinarian School ، وقد حذت في نزعاتها حذو شلنجويرث الذي أشرنا إليه من قبل ، وأقامت هذه

---

(1) Chillingworth, The Religion of Protestants وقد نشر عام 1637 م

المدرسة دفاعها عن التسامح على أساس التمييز بين أصول الدين وفروعه ، فكتب جلانفيل Glanvill أحد أتباعها رسالة عن زهو الاستبداد بالرأي Vanity of Dogmatising بشر فيها بالشك الهدام وتسلل منه إلى طلب التسامح المطلق ، ووضع ثبتًا بأصول المعتقد الديني ، وأكد ضرورة التسامح مع غيرها من فروع .

وسرعان ما تسللت هذه الروح وبدت في سن القوانين ، ففي عام 1673 قدم تشارلس الثاني لائحة التسامح الديني ، وفيها حرر الكاثوليك والبروتستانت من بعض ما كان يرهقهم من وجوه التضييق ، وإن كان البرلمان قد أكرهه على سحبها ! وقد كان حزبا التوري Tories والهويجس Whigs ـــ وكلاهما نشأ في عهد تشارلس الثاني ت 1685 ـــ يميلان إلى الاضطهاد ، يسرف فيه الأول فيرغب في اضطهاد كل من خالف مذهب الكنيسة الرسمية ، ويترفق الثاني فيقرر التسامح مع سائر المذاهب البروتستانتية ! وكلاهما يعادي الكاثوليك ! وبعد ثورة سنة 1688 المجيدة أصدر البرلمان في عام 1689 قانون الحقوق الذي حرم فيه على الكاثوليك اعتلاء العرش الإنجليزي أو مزاولة عباداتهم ، وبهذا دانت انجلترا بالبروتستانتية رسميًا .

وفي نفس العام صدر قانون التسامح ، وبه أبيحت الحرية الدينية للمهتدين أو البرسبتيريين Presbyterians والأبرشيين القائلين باستقلال الكنائس إداريًا Congregationalists وأصحاب التعميد Baptists والكويكرز Quakers وحرمت الحرية على الكاثوليك والموحدين Unitarians وبقي مرسوم تشارلس الثاني قائمًا ضدهم ، وكانت هذه التدابير تجمع بين التعصب والتسامح ولكنها تساير روح العصر الذي صدرت عنه .

التسامح الديني في فلسفة لوك :

ولكن الفيلسوف جون لوك ت 1704 قد مثل في السياسة مبادئ هارنجتون ،

وحذا في الدين حذو شلنجويرث ، فتصدى للدفاع عن التسامح وخاصم فيه أعداءه من لاهوتيي أكسفورد ، وفي مقدمتهم رئيس الشمامسة بروست Proast الذي تولت الجامعة طبع رسائله .

اعتنق لوك مبادئ الكنيسة الإنجيلية وأبلى في الدفاع عن العقل بلاء حسنًا ، ليقيه طغيان « السلطة » ويبعد عنه سلطان « النقل » وقد وضع في عام 1690 أعظم مؤلفاته الفلسفية « مقال عن العقل البشري » وفيه دلل على أن التجربة مصدر المعرفة ، وبهذا انتزعها من مجال السلطة وحرر الحقيقة من قيود الدين وأخضع الإيمان لسلطان العقل ، فصرح — مع إيمانه بالوحي المسيحي — بأن الوحي إن بدا على تناقض مع العقل وجب رفضه وعدم الإذعان لأمره .. ! .

كان توماس هوبز ت 1679 قد ذهب إلى جمع السلطة التشريعية والتنفيذية والدينية في يد الحاكم بحجة أن الإنسان يؤثر مصلحته على كل اعتبار ، وقد أساء رجال الدين استغلال السلطان الذي تهيأ لهم ، ولهذا وجب أن يسحب منهم ويركز في يد الحاكم المستبد ، وباستبداده العادل ترتفع الموضوعات الدينية عما تستهدف له من وجوه الجدل ، وبهذا يكون من حقه هو وحده أن يفرض على رعاياه الدين الذي يراه — وإن كان هوبز قد عدل أخيرًا عن هذا الرأي لأن أكثر الإنجليز بروتستانت يحكمهم في ذلك الوقت كاثوليك — بهذا يكون هوبز قد أقر الاضطهاد الديني ولكنه نقله من يد الكنيسة إلى يد الحاكم المستبد ، أما « لوك » فقد انطلق — على عكس هوبز — يبشر بالحرية الدينية وينادي بتحرير العقيدة من طغيان الكنيسة والدولة معًا ، ويهدم النزعة الاستبدادية ويستبدل بها الحرية والتسامح المحمود ، ويطالب بفصل الكنيسة عن الدولة ليكفل تحقيق هذه الآمال الباسمة .

وقد وضع « لوك » في عام 1689 رسالة عن التسامح الديني أردفها بثلاث رسائل يتمم فيها البحث في هذا الموضوع ، أثبت فيها أن مهمة الحكومة تختلف كل الاختلاف عن مهمة الدين ، فالحكومة وظيفتها المحافظة على مصالح رعاياها المدنية

والعمل على ترقيتها ، وليس عالم الروح من اختصاصها ، لأن الحاكم لا يملك إلا القوة المادية ولا شأن لمثل هذه القوة بالدين ، إذ إن التدين يقوم على اقتناع العقل اقتناعًا باطنيًا ، وقد صيغ العقل بحيث إن القوة لا تستطيع قهره وإكراهه على الإيمان ، ومن أجل هذا كان من خطل الرأي أن تعمد الدولة إلى إصدار قوانين تفرض بها دينًا من الأديان ، لأن القوانين لا تستقيم بغير عقوبات تفرض على من يعصي أمرها ، وليس في وسع العقوبة أن تيسر سبل الإقناع أمام الناس .

طالب « لوك » بتحرير العقيدة من سلطان الدولة وطغيان الكنيسة معًا ، لأن الكنيسة في رأيه ليست إلا « هيئةمختارة حرة » ولو كان من الضروري أن تفرض المسيحية على من كفر بها عنوة واقتدارًا ، لكان من الأيسر على الله أن يهدي هؤلاء الضالين بفيالق من كتائبه في السماء ، بدلاً من أن يحقق هذه الهداية أحد من أتباع الكنيسة ..! وهذا يذكرنا بقول الإمبراطور تباريوس : إذا كان في المعتقدات الإلهية إساءة إلى الآلهة ، فعلى الآلهة أن تقتص لنفسها ..! .

على أن « لوك » مع هذا كله لم يتخلص من أوهام عصره وأحكامه المبتسرة فقد ناقض مبدأه في حرية الاعتقاد واستثنى من مبدأ التسامح الكاثوليك والمراطقة ، لأن هؤلاء الذين لا يؤمنون بوجود الله ، لا يقيمون وزنًا لعهد ولا قسم ولا ميثاق ، وبغيرها لا يستقيم المجتمع الإنساني ، ثم إنهم بتقويضهم الأديان كلها لا يملكون الادعاء بأن لهم دينًا يعطيهم الحق في طلب التسامح .! .

التسامح في انجلترا بعد القرن السابع عشر :

وفي عام 1689 ــ قبل ممات لوك ــ صدر في انجلترا مرسوم بالتسامح ، ولكنه كان تسامحًا أبتر ناقصًا ، إذ حرم فيه من التسامح الكاثوليك والموحدين ولكنه مهد لشيوع التسامح الصحيح بعد ذلك ، فاستقر في انجلترا أمر التسامح النسبي إبان القرن

الثامن عشر ، وخفت حدة التعصب وتسللت النزعة العقلية إلى الأحبار البارزين ، وسرعان ما بسط التسامح جناحه على الكاثوليك والموحدين ، فصدر في مطلع القرن الغابر (في عام 1813) قانون بحرية العبادة للموحدين ، وإن كانوا لم يزاولوها إلا في عام 1840 . ثم صدر في عام 1819 قانون آخر يقضي بتخفيف القيود المفروضة على الكاثوليك . واستمتع اليهود بحقوقهم المدنية كاملة عام 1858 ، وهكذا مضى أحرار الفكر بانجلترا البروتستانتية في طريق التسامح الديني قدمًا ، منذ القرن السابع عشر حتى القرن الغابر .

ونلاحظ مما أسلفنا ، أن أول خطوة نحو التسامح في انجلترا ، مرجع الفضل فيها إلى روح الشك الذي حطم الأسس التي قام عليها مبدأ الاضطهاد ، وأن أعظم المحامين دفاعًا عن التسامح كان ممن تربطهم بالدين أوثق الصلات ! .

هذا عن قصة التسامح في انجلترا ، فلنعرض في إيجاز إلى قصته في فرنسا :

تداعي الاضطهاد في فرنسا بظهور الشك :

قلنا إن الاضطهاد لا يستقيم بغير سلطة تمكن أصحابه من جندلة خصومهم وتقويض هذه السلطة لا يخمد نار الحقد ولا يقضي على الضغينة التي تحك في الصدور ، وإنما يتلاشى هذا كله يوم يستنير المتعصبون ويلجأون إلى منطق العقل ووحي العدالة ، يلتمسون في رحابه الصفاء والوئام .

وتاريخ التسامح الديني يقول إن انتصار الحرية الدينية قد تم على يد العقليين ، يوم بدأوا بالشك في الأسس التي قام عليها الاضطهاد ، فلما تداعت هذه الأسس انهار الاضطهاد بتداعيها ، وكان هذا أوضح ما يكون في فرنسا التي اضطرمت بالشك الهدام في أواخر القرن السادس عشر على يد مونتاني Montaigne وسانشيه Sunchez ، ثم خمدت جذوته في عباب الدعوة إلى العقل في القرن الذي تلاه ،

فهادنت الفلسفة الدين على يد ديكارت ومدرسته[1]

ثم اتقدت النزعة العقلية في القرن الثامن عشر ، وبدت في حملة فولتير وأقرانه على التعصب والاضطهاد ، وكتب لأحرار الفكر أن يمهدوا الطريق لقيام الثورة الفرنسية ، فلنقف لتفسير هذا قليلاً :

رواد التسامح في فرنسا :

في أواخر القرن السادس عشر وأوائل القرن الذي تلاه ، أثار الشك في نفوس الناس مونتاني وديكارت وبايل Bayle وإن كان شك كل منهم يخالف شك صاحبه خلافًا ملحوظًا .

فأما مونتاني فلم يجد مبررًا للثقة في أدوات المعرفة البشرية من عقل وحواس ، وارتاب في قدرتها على التوصل إلى الحقيقة فانتهى بهذا إلى الشك الهدام ؛ ولكنه كان مع هذا الشك كاثوليكيًا وفيًا لدينه القديم ، ومقالاته تبشر بالمذهب العقلي وتجهر في نفس الوقت بالكاثوليكية الصحيحة . وقد لزم الموقف الشكي الذي لا يرى إمكان التوفيق بين العقل والدين لأن العقل قاصر في ميدان اللاهوت ومن أجل هذا وجب إبعاد الدين عن تدخل العقل لكي يقبل الناس على اعتناقه من غير جدل .

اقتصر شك مونتاني وغيره من أعلام مدرسته على العلم والفلسفة لم يتجاوزهما إلى مجال الدين ؛ ولكن شكهم كان هدامًا ، ومن هنا كان تأثيره في زعزعة الأسس التي استند إليها التعصب والاضطهاد .

وأما ديكارت ت 1650 فقد اتخذ الشك منهجًا يزاوله بإرادته ومن ثم استطاع أن يتحرر منه ، لم يقصد بشكه إلى الهدم والتقويض ، بل أراد أن يحارب به شك

---

(1) انظر كتابنا قصة النزاع بين الدين والفلسفة ص 167 وما بعدها .

مونتاني وغيره ، خاض ديكارت غمار الشك بإرادته فانتهى منه إلى اليقين ، فرد به سلطان العقل بضمان الله الذي وضعه في نفوس البشر ، ومن هنا كان الشك بدء كل حكمة ، وإذن فليس الشك جريمة تستحق العقاب .

وقد كان « بايل » ناقدًا ممتازًا يضطرم حماسة لنصرة التسامح ، وقد تصدى لمقاومة رجال اللاهوت الذين نزعوا إلى اضطهاد الأحرار استنادًا إلى الآية الإنجيلية : أجبروهم على اعتناق دينكم ، واعتمادًا على أقوال القديس أوغسطين ، فعرض بايل لمناقشة مزاعمهم وكتب « تعليقات فلسفية على آية أجبروهم ... إلخ ، ونشر الكتاب في نفس العام الذي صدر فيه كتاب لوك (1686) .

وقد أكد بايل الشك في قيمة القوة أداة لإقرار الحق ، إذ لو كان استخدام القوة في قمع الخطأ مبدأ صحيحًا ، لما كان هناك حق بلغ من اليقين ما يبرر تطبيق هذا المبدأ[1] .

وقد كتب بايل قاموسه الفلسفي بأسلوب لاذع مر ، وفيه بدا من أعظم رواد الدعوة إلى الحرية الدينية .

على أن « بايل » لم يؤت من الشجاعة الأدبية ما يمكنه من مجابهة خصومه ، فكان يكتب متخفيًا معتصمًا بالتقية ؛ وقد نشر كتابه السالف في تعليقاته على الآية الإنجيلية تحت عنوان :

Contrains - les d'entrer, trad ed l'anglais du Sieur Jean Fox de Bruggs Par M, J. F. : a Contorberry, chez Th. litwell »

على أن الظاهرة المشتركة بينه وبين مونتاني وديكارت ، أنهم قاوموا التعصب وحاربوا الاضطهاد وانتصروا للتسامح ، كانوا عقليين لأنهم كانوا شكاكًا ، على ما

(1) انظر تفصيل هذا في كتابنا السالف الذكر ص 178 - 180 .

بين شك كل منهم وشك الأخر من فروق .

والحركة العقلية التي مثلها هؤلاء الثلاثة ـــ وكانوا مصدرها إلى حد كبير ـــ تجلت في سياسة هنري الرابع الذي أقر التسامح بمرسوم نانت الذي أشرنا من قبل إلى أنه أصدره عام 1687 ورفع به عن الهوجونوت قيود الاضطهاد ، وإن كان قد حرمهم من مزاولة بعض المهن .

ومرجع الفضل في هذا القانون إلى حركة عقلية نهض بها بعض أحرار الفكر ممن ضاقوا بالتعصب ونزعوا إلى إقرار الحرية الدينية ، وقد تزعم هذه الحركة فولتير .

حملة فولتير على التعصب الديني :

كان فولتير ت 1778 Voltaire طبيعيًا مؤلهًا Deist ، آمن بوجود إله هدت إليه طبيعة البشر ، ورأى أن هذا الاعتقاد ضروري لصيانة كيان المجتمع : « فإذا لم يكن الله موجودًا لوجب اختراعه ، فيجب أن يؤمن الناس بالله حتى تكون زوجتي أكثر وفاء لي ، وخادمي أقل نزوعًا للاختلاس » وبهذا الإله الذي هداه إليه عقله استغنى عن الوحي والكتب المقدسة وأطلق على المسيحية اسم الكائن الوضيع ..! وحارب الكنيسة ورجالها وناهض التعصب والخرافات وجاهد لاستئصالهما جهاد الأبطال ، وقاوم الاضطهاد ومزق جلود أهله ، واحتلت مواقفه في الدفاع عن التسامح الديني أبرز مكان في تاريخ الدفاع عن حرية الاعتقاد ، وكانت أولى حملاته كتيبًا أسماه « مقبرة التعصب الديني » .

قال في مطلعه : إن من يعتنق دينه من غير تفكير ـــ شأن السواد الأعظم من الناس ـــ كالثور الذي يستسلم للنير ويحمله راضيًا ..! .

ومن آثار فولتير القيمة التي خلفها لنا في مهاجمة التعصب رسالته في التسامح بمناسبة مصرع جان كالا Traitè Sur la Tolerance ، وغيرها من رسائل أرسلها

شواظًا من نار إلى المترمتين الذين تحولوا تحت تأثير التعصب البغيض وحوشًا آدمية مفترسة ، لا تردها عن ارتكاب الجريمة رحمة ولا تردعها عدالة .

ولم يكن مبدأ الفصل بين السلطة الزمنية والسلطة الروحية معروفًا في عصره وكانت الرقابة مفروضة على المطبوعات ، وعقوبة الإعدام مسلطة على من يعرض لنقد الدين ، ولكن كتاباته قد استبدت بهوى عصره ، إذ كان فولتير ترجمانه الصادق الذي عبر عن آلامه وآماله أحسن تعبير وأقواه ، وكان يقول : إن من يقول لك اعتقد بما أومن به وإلا نزلت بك لعنة الله ، لا يلبث أن يقول لك : اعتقد بما أومن به وإلا قتلتك ! ولا يمكن أن يسود على الأرض سلام قبل أن يعرف الناس كيف يتسامح بعضهم مع بعض في مجال الفلسفة والسياسة والدين ، ويمثل هذه الروح كان يكتب فولتير . فلنعرض نموذجًا لمواقفه الرائعة التي انتصر فيها للدفاع عن ضحايا التعصب الديني في فرنسا إبان القرن الثامن عشر ، ومبلغ النزوع إلى التسامح عند مفكري هذا القرن ! .

دفاع فولتير في قضايا التعصب ـــ مأساة كالا :

هذه قصة أسرة بروتستانتية عسف بها جور الكثلكة في تولوز ، هي أسرة جان كالا Jean Calas ـــ وهو تاجر أقمشة من الهوجونوت ـــ وكان القانون يقضي بأن يكون خدم الهوجونوت من الكاثوليك رغبة في التجسس عليهم ، فكانت خادم الأسرة العجوز كاثوليكية ، وكان أحد أبناء « كالا » يعتنق الكثلكة دينًا ويعيش بمعزل عن أسرته ، ولكن أباه يقوم بالإنفاق عليه راغمًا ، كما كان يقضي القانون في ذلك العصر ! وكان ثاني الأبناء ـــ أنطوان ـــ مغيظًا محنقًا ، لأنه أراد احتراف المحاماة فحرمه القانون ذلك ، لأن المحاماة كانت من المهن المحظور على الهوجونوت مزاولتها ! ففكر في الارتداد عن مذهبه البروتستانتي إلى الكثلكة ، وكان هذا الارتداد يؤذي كرامة الأسرة ويشوه سمعتها .

وفي ذات ليلة كان في زيارة الأسرة صديق لها ، كشف عند الانصراف أن أنطوان الذي انسحب بعد العشاء ، ملقى في الطابق السفلي من الدار قتيلاً ..! وكان لا يزال عالقًا بعنقه رباط أسود ، وخفت الأسرة لمرآه وأيقنت أنه استوفى أنفاسه ، انطلقت تصيح وتبكي مصير هذا المسكين ، وبادر الجيران إلى الدار يستفسرون عن حقيقة النبأ فأبلغهم الأب أن ابنه قد اغتاله بعض الأشقياء .

ولكن الشبهات والريب قد ساورت الناس بصدد هذه الجريمة ، وامتدت الظنون إلى الأسرة أبًا وأمًا وأخًا وتجاوزتهم إلى الصديق الذي كان في ضيافتهم ! وتأيد هذا الظن حين ثبتت رغبة القتيل في احتراف المحاماة على غير جدوى ، وحين تأكد ميله إلى الارتداد عن مذهب أسرته واعتناق الكثلكة دينًا ، وساعد على هذه الريب اشتعال التعصب الديني في نفوس الناس إبان هذا العهد ، واضطرار الأب إلى أن يتكفل بنفقة المرتدين عن دينه من أفراد أسرته ، مع أنهم يعيشون بعيدين عنه ! .

فاعتقل الذين حامت حولهم الشبهات ، وكبلوا بالحديد وقدموا إلى المحاكمة ، وكان قد جاء في التقرير الطبي عن هذا القتيل ، أن احتمال انتحاره كاحتمال شنقه على يدي آخرين ، كلاهما ممكن ! واستطال الجدل في غمار التحقيق الذي جرى بصدد ذلك ، واستغل الكاثوليك الحادثة أسوأ استغلال ، ونجحوا في إثارة الشعور الديني المتزمت من أجل هذا الشهيد الذي راح ضحية التعصب ضد الكثلكة ..! .

وتقررت إدانة المتهمين من غير دليل قاطع يثبت إدانتهم ، إلا مجرد الظن يحوم حولهم ، وكانت الإدانة بعد خلاف شديد بين القضاة الذين بلغ عددهم ثلاثة عشر قاضيًا ، وصدر حكم الإدانة بأغلبية صوت واحد ! وأعدم « كالا » وقد نيف على الستين من عمره على آلة التعذيب ، وقبل إعدامه سيم مر العذاب فاحتمله صابرًا ، ثم توسل إلى الله عند الممات أن يغفر لقضاته ! وبرأ برلمان تولوز سائر المتهمين وقضى بنفي أبناء كالا ، وألقي ابنا وابنة له في الدير وتركت الزوجة لتموت جوعًا ..! .

دفاع فولتير في هذه المأساة :

وكان فولتير أثناء ذلك قد نيف على الستين ولكنه كان فتى القلب وثاب الشعور ، يتدفق بيانه طلقًا لا يقف ولا يتردد ، وتندلع من قلمه نيران تكوي ولا ترحم ، وكان يعلم أن السلطات الكاثوليكية تسوم الهوجونوت في جنوبي فرنسا سوء العذاب منذ أن ألغي مرسوم نانت وأطلقت يدها بالانتقام ، ويعرف أن القانون يقي جورهم ويحمي عسفهم بخصومهم ، لأنه يحرم العبادة على غير الشعائر الكاثوليكية ، ويهدد بالإعدام عقابًا لمن ركب رأسه وعصى أمر القانون ، وكان الرأي العام الكاثوليكي من ناحية أخرى يرتاح للانتقام من الهوجونوت ، ولكن أنباء الجريمة قد تطايرت حتى اتصلت بسمع فولتير ، واقتنع ببراءة كالا وأسرته من دم القتيل ، فوطن العزم على أن يرد هذا الظلم ويمزق جلود المتعصبين وينتصر لسياسة التسامح ، حبًا في مبدأ التسامح لا رغبة منه في نصرة طائفة على أخرى .

بدأ فولتير بالاستعانة بأصدقائه الذين كانوا على رأيه في جمع الأدلة التي تعين على إعادة النظر في القضية من جديد ! ونهض هؤلاء الأصدقاء بمهمتهم على خير وجه ، ثم حاول فولتير بعد هذا أن يغير اتجاه الرأي العام برسائل نارية وجهها إلى أصحاب النفوذ من أصدقائه ، ومنهم رئيس الوزراء في ذلك العهد . ثم اتهم بعض القضاة بأنهم أعضاء في جمعية كاثوليكية في تولوز ، ورأى أن الأب الذي نيف على الستين لا يقوى على قتل شاب في مقتبل العمر دون الاستعانة بغيره ، والقضاء يقول إن الذي أعانه زوجه وأحد أبنائه والخادم العجوز ، فكيف تقدم العجوز الكاثوليكية على قتل ابن تولت تربيته وعرفت ميله إلى دينها ..؟ وكيف يقدم أب وأم على قتل ابنهما ؟ وكيف تتم جريمة القتل من غير معركة تترك خدوشًا أو جروحًا ..؟ ثم كيف يشنق الأب ابنه ويعود فيرفع عنه الحبل وينادي مع بقية المتهمين ليصل النبأ إلى الجيران ؟ ويمضي فولتير في التدليل على بطلان الإدانة مستعينًا بأسلوبه المثير وقوته الغلابة على إيقاظ المشاعر وتحويل العواطف إلى حيث يريد . وكان فولتير قد سعى

إلى الأرملة التعيسة وأقنعها بالسفر إلى باريس ، حيث خف لنصرتها كبار المحامين وأحسن الجمهور استقبالها .

وسرعان ما آتت دعوته أكلها واتصل به فريدريك الأكبر ملك بروسيا ، وكاترين قيصرة روسيا ، وغيرهما ممن انتصروا لدعوته وشدوا بالمال أزره ، حتى تقرر أن يعاد النظر في القضية بعد عام من صدور الحكم فيها ؛ ثم قرر برلمان باريس بإجماع الآراء براءة الأب كالا وأسرته بعد ثلاثة أعوام من إعدام هذا المسكين ..! ومنح الملك معاشًا لهذه الأسرة التعيسة يقدر بثلاثين ألف فرنك ، ولخادمها العجوز ثلاثة آلاف فرنك ! وكان كل هذا على كره من برلمان تولوز الذي قرر الإدانة من قبل ورفض الاعتراف بالبراءة بعد .. ! .

دفاع فولتير في مأساة سيرفين :

كان مثل هذا الجور الظلوم في ذلك العصر كثيرًا ، فلم يكن غريبًا أن تتكرر المأساة في نفس العام ، وأن تسير إجراءات الإدانة على النحو الذي سارت فيه الإجراءات في قضية كالا . ذلك أن كاثوليكية كانت تخدم عند أسرة سرفين Sirven التي كانت تدين بمذهب الهوجونوت ، فمهدت هذه الخادمة لابنة سيرفين أن تفر إلى دير عذبت فيه عذابًا أليمًا لتتخلى عن مذهبها البروتستانتي وتعتنق الكثلكة دينًا ، فلاذت الفتاة فرارًا وانتحرت غرقًا في بئر ! فاتهم أبوها بإغراقها ليحول دون ارتدادها عن دينها ..! وصدر حكم بإعدامه مع زوجته ونفي ابنتيه الأخريين ومصادرة أملاك الأسرة ..! فانطلقت الأسرة فارة من وجه القضاء وولت وجهها شطر سويسرا ، حيث أقنعت فولتير ببراءتها .

ولبث فولتير تسع سنوات يناضل لإعادة التحقيق في هذه القضية حتى كلل مسعاه بالنجاح ، وكان دفاعه في هاتين القضيتين وفي غيرهما مثار الإعجاب والتقدير .

حقيقة التسامح عند فولتير :

اضطرم القرن الثامن عشر بروح النقد الهدام الذي أتى على سوءات المجتمع ومساوئ الكنيسة ، وكان طبيعيًا لرجل عصبي المزاج حاد الطبع كفولتير ــ أن يتزعم حركة هذا النقد الهدام ، ووقف الكثير من جهوده على مهاجمة التعصب ونصرة التسامح ، فلم يكتب رسالة أو مسرحية أو قصة أو قصيدة أو مؤلفًا في التاريخ ، إلا شاد فيه بالتسامح وندد بالتعصب البغيض .

وقد رد فولتير جريمة التعصب إلى إيمان الناس بوجود دين منزل ..!! ورأى أن هذا الدين قد صدرت عنه تقاليد وعقائد آمن الناس بها وهي لا تتصل بالفضيلة ولا تمت للعلاقة القائمة بين الناس بسبب من الأسباب ! ومن هنا كانت حملاته على الدين الذي نزل به الوحي وتبشيره بالدين الطبيعي ، دين العقل الذي يدفع الضمير إلى الشعور بوجود كائن أعلى يحثنا على مزاولة الفضيلة دوامًا .

كان طبيعيًا بعد هذا أن يهاجم في كل كتاباته رجال الدين في غير رفق ولا رحمة ؛ وتماشيا مع مذهبه هاجم الإسلام في مسرحيته عن « النبي محمد أو التعصب » 1742 م واتهم النبي عليه الصلاة والسلام بالتعصب لأنه عزا دينه إلى الوحي الإلهي ! .

ولعل هذا يفسر لنا السر في إعجاب فولتير بحكيم الصين « كونفشيوس » الذي قنع بالتبشير بوجود كائن أعلى ، ونادى بالعمل بما تمليه الفضيلة وتوحي به الأخلاق ، دون أن يتجاوز هذا إلى الادعاء بأنه رسول يحمل رسالة إلهية عليه أن يبلغها إلى الناس ! وقد عرفت هاتان العقيدتان ــ الكائن الأعلى والأخلاق الفاضلة ــ منذ عشرات القرون قبل ميلاد المسيح ، عند الشعوب العريقة في القدم ، وليس كل دين إلا مرحلة في تاريخ الأديان ، إنه يمثل حلقة في سلسلة تطورها ، والعالم أسرة واحدة يمكن أن تحيا في جو من التسامح والوئام ، متى قنعت بالاعتقاد بوجود كائن علوي ،

وزاولت الفضيلة واعتنقتها مبدأ في كل ما تباشر من أعمال .

في الحق إن تعصب فولتير لأفكاره وحملاته اللاذعة الساخرة على من خالفوه رأيه ، لشاهد عدل على تعصبه وحاجته إلى التسامح ..![1]

موقف روسو من الاضطهاد :

وقد كان جان جاك روسو يحس بشرور الاضطهاد الديني كما يحس بها فولتير ، ولكنه نشأ في جنيف ، وتشبع فيها بتقاليد كلفن ، وبدا أثر هذا في الحكومة المثالية التي تصورها ، إذ إنها لا تمتاز على أية حكومة ثيوقراطية دينية ، والدين المدني الذي اقترح فرضه على الناس ليس أكثر من مسيحية غير متعسفة ، وقد آثر الإبقاء على بعض المبادئ الجوهرية في الدين المسيحي ـــ كالإيمان بالله واليوم الآخر ـــ وفرضه على الناس عنوة واقتدارًا ، ومن أبى الإذعان لها كان مصيره النفي ! وكان هذا في وقت لم تزاول فيه تجربة التسامح المطلق .

وقد كان روسو طبيعيًا مؤلهًا ، ومن هنا كان إيمانه بالله ، وإنكاره اللاهوت والوحي المنزل ، فأحرق كتابه في باريس وصدر أمر باعتقاله ، فلاذ فرارًا ولبث شريدًا طريدًا حتى حط رحاله في إمارة « نيف شاتل » حيث وقاه شر المتعصبين فردريك الأكبر ، الحاكم المتسامح الوحيد في ذلك العصر ، ولكن روسو اتهم بالهرطقة فولى وجهه شطر انجلترا عام 1766 ثم غادرها إلى فرنسا وأقام بها حتى قضى نحبه ..

ومن هذا نرى أن الرغبة في الاضطهاد لم تكن مقصورة على الجماهير وحدها ، بل امتدت إلى كبار المفكرين وكان لها أثرها في كتاباتهم ..! .

---

(1) Lotfy Fam, Etude et traduction de « Candide » de Voltaire 1933 وقد نشرت الترجمة وحدها

التسامح المطلق في الثورة الفرنسية :

وقد أقبلت الثورة الفرنسية تحمل التبشير بالتسامح ، فجاء في إعلان حقوق الإنسان في عام Declaration of Rights 1789 ألا يضار امرؤ بسبب آرائه الدينية ما لم يترتب عليها إضرار بالنظام العام ، وبقيت الكاثوليكية الدين السائد في الدولة ، وسمح للبروتستانت دون اليهود أن يشغلوا الوظائف العامة . فكانت هذه خطوة نحو التسامح بمعناه الصحيح .

بل غلا أحرار الفكر في دعوتهم فاحتج ميرابو ــ أعظم سياسي فرنسي في عصره ــ احتجاجًا صارخًا على استخدام كلمة « التسامح » والدين « السائد » في مجال التعبير عن حقوق الإنسان ، لأن لفظ التسامح يوحي بنوع من الاستبداد ! إذ أن السلطة التي تملك التسامح تملك حرمان الناس منه ! .

وتردد هذا الاحتجاج في كتاب توماس بين Thomas Paine الذي صدر بعد ذلك بعامين ، إذ يقول إن لفظ التسامح لا يضاد التعصب ولكنه لفظ مقلد مزور له ، كلاهما تعسف واستبداد ، لأن أحدهما يدعي لنفسه الحق في حبس حرية الضمير ، والثاني يدعي لنفسه الحق في منحها للناس ..! .

وإذا كانت الثورة الفرنسية قد بدأت مبشرة بالحرية الدينية ، فسرعان ما سقطت هذه الحرية في عباب التمرد على الحكومة ، ومضى الناس بعد الملكية التي تداعت أركانها (1792 - 1795) يدعون إلى نبذ المسيحية ويبشرون بعبادة العقل ..! .

وفي دستور عام 1795 انفصلت الكنيسة عن الدولة فكفل هذا حرية العبادات لجميع العقائد واستخف الناس بالكاثوليكية ورجالها .

ولكن نابليون قد أقر للكاثوليكية نفوذها مع بقاء التسامح مع غيرها من المذاهب .

وصفوة القول في هذا النزاع الذي ثار في فرنسا بين معسكر الرجعيين ومعسكر

الأحرار ، أن نمو الحرية الدينية كان يتعارض مع الكنيسة ويتنافى مع روحها وأن انتصاره كان الشاهد العدل على اضمحلال نفوذها .

وقد حاول البعض تحت قيادة لامنيه Lamennais أن يربطوا في القرن الغابر بين المذهب الكاثوليكي والمدنية الحديثة ، فضاق بحركتهم البابا جريجوري السادس عشر وأصدر في عام 1832 منشوره الذي حمل فيه على الدعوة لحرية الضمير وحرية النشر ونحوها ، وهاجم أتباعها في غير رفق ولا هوادة .

مغزى تاريخ التسامح في انجلترا وفرنسا :

ومن كل ما أسلفناه نلاحظ أن روح التعصب قد بلغت أشدها في كنيسة روما وغيرها من كنائس المصلحين من البروتستانت وأن مرجع الفضل في اضمحلال هذه الروح عند الكاثوليك والبروتستانت على السواء ، إلى قيام المذهب العقلي وشيوع القول بكفاية العقل وقدرته على الفهم والتعليل ، وأن المتزمتين من رجال الدين — في الكاثوليكية والبروتستانتية على السواء — هم الذين تصدوا لمقاومة المدنية ومناهضة تعليمها ومبادئها ، وقد صمدوا لأداء هذه المهمة ولم يتخلوا عن سلاحهم في الميدان إلا بعد سلسلة من الفتن والثورات شنها خصومهم وأتوا فيها على نفوذهم ، بل بعد أن بدد نور العلم ظلام الجهل والحقد والتعصب .

انتصار التسامح الديني في بروسيا في القرن الثامن عشر :

فإذا انتقلنا إلى ألمانيا في ذلك القرن — الثامن عشر — طالعتنا الحرية الدينية وقد انتصرت على يد حاكمها الحر فريدريك الأكبر ؛ ذلك أن حرب الثلاثين في القرن السالف — السابع عشر — قد انتهت — على ما عرفنا — بنوع من التسامح الضيق تم فيه الاعتراف بالكاثوليكية والبروتستانتية — من لوثرية وكلفنية وزونجلية —

واستبعد ما عداها من مذاهب ، وأتيح للأمراء ــ على ما جرى عليه العرف في ذلك العصر ــ اختيار ما يروقهم من العقائد وفرضه في إماراتهم مع التسامح بقيام غيره إلى جانبه أو عدم التسامح في ذلك ، حسب مشيئة الأمير ، ولكن رجال القانون والآداب وغيرهم من المفكرين قد انتصروا لمبدأ التسامح ، ومهدوا الطريق الذي يسلم إلى اعتناقه ، فلما ولي فردريك الأكبر عرش بروسيا ، تلقى بعد بضعة أشهر من حكمه (1740) بيانًا رسميًا بصدد قضية دينية فكتب على هامشه يقول : إن من حق كل امرئ أن يصل إلى الجنة بالطريقة التي تروقه ..! وأن في وسع الإنسان أن يكون مواطنًا صالحًا ، أيًا كانت العقيدة التي يدين بها ..! وليس للدولة عنده أكثر من ذلك ؛ فكانت هذه وثبة في مجال التسامح لا تصدر إلا عن رجل واسع الصدر متزن العقل . وبهذا استقرت الحرية الدينية المطلقة على يد هذا الحاكم الحر الذي اتصلت بينه وبين فولتير روابط الصداقة ، وشمل التسامح المذاهب المسيحية كلها . بل وخطر لهذا الحاكم الحر أن يأذن للمسلمين بالهجرة إلى مملكته ! وتأيدت هذه المبادئ في دستور بروسيا عام 1794 ، وفيه تحققت حرية الضمير المطلقة في المذاهب الرئيسية في المسيحية ، وهي المذهب اللوثري والإصلاحي والكاثوليكي وتساوت كلها في الحقوق والامتيازات .

أثر ألمانيا في غيرها من الدول :

وقد حذت الدويلات الألمانية حذو بروسيا بقرار صدر في عام 1803 م ، وسرعان ما بسطت الحرية الدينية جناحها على ربوع ألمانيا كلها ، قبل أن تنشأ الإمبراطورية الألمانية الجديدة (في عام 1870 م) .

وشاع هذا الروح الطيب في النمسا في عهد الإمبراطور يوسف الثاني ، وإن كان التسامح الذي أقره في أواخر القرن الثامن عشر منقوصًا غير كامل ولكن أثره كان محمودًا في الولايات النمساوية في إيطاليا ، لأنه مهد لقبول فكرة التسامح عند

أهلها بعد ، وكان طريفًا أن ينهض بالدفاع عن قضية التسامح فيها إبان القرن الثامن عشر أحد رجال الكهنوت من الكاثوليك ، وهو تامبوريني Tampurine وقد أذاع تحت اسم مستعار كتابًا فصل فيه بين الكنيسة والدولة وناهض الاضطهاد وندد بمحاكم التفتيش ، وجهر بمنافاة سياسة القمع لمبادئ العقيدة المسيحية ... وإن كان على اتفاق مع جون لوك في أن الإلحاد إثم يستحق القصاص .

وأخذت الحرية الدينية تتسلل إلى الإمارات الإيطالية الناشئة شيئًا فشيئًا حتى ضاقت الكنيسة بهذا الروح الجديد ، ونهض البابا جريجوري السادس عشر في عام 1832 بمقاومة الروح الجديد بمنشور عام على ما أشرنا منذ حين ، ثم عقب البابا بيوس التاسع بمنشور أصدره في عام 1864 وجرى فيه على النهج الذي رسمه سلفه ..! وفاجأ مجلس الفاتيكان العالم بقرار أعلن فيه عام 1870 أن البابا معصوم من الخطأ ..!![1] .

قيام الحرية الدينية في أوروبا في القرن الغابر :

وفي القرن الغابر ، استقرت الحرية الدينية في أوروبا ، وشمل التسامح أبناء الأمة الواحدة وبرئت حياة الناس مما كان يؤدي إليه تعصب المتزمتين من وجوه الاضطهاد والتعذيب ، وأتيحت وظائف الحكومة ويسرت أسباب التعليم في المدارس ، وطرحت نيابة المجالس لأبناء الأمة الواحدة وقد كانت إلى الأمس القريب وقفًا على أتباع الحكومة ، وذاعت الحرية الدينية وسلب الحكام حقهم في أن يفرضوا على رعاياهم اعتناق الدين الذي يدينون به .

ولكن اليهود ظلوا موضع اضطهاد في أكثر بقاع العالم المسيحي ، بيد أن اضطهادهم في القرن الغابر كان مرده إلى أسباب سياسية واجتماعية وليست دينية ، وقد خضع اليهود للاضطهاد والعسف في وسط أوروبا وشرقيها ، وكانوا مثار

---

(1) انظر الفصل الأخير من كتابنا « قصة النزاع بين الدين والفلسفة » .

الكراهية والحقد في ألمانيا في القرن الحاضر بوجه خاص .

تطورت أسباب اضطهاد اليهود في القرن الحاضر فأضحت اجتماعية أكثر منها سياسية أو دينية ، فلنقف لبيان هذا الاضطهاد وقفة قصيرة :

في القرن الغابر صرح رينان Renan وغيره بالتفرقة بين الساميين والآريين واكتملت نظرية الخصومة السامية Anti Semitism التي كانت ترمي إلى اضطهاد اليهود وسلبهم الكثير من حقوقهم السياسية والاجتماعية ، جزاء وفاقًا على ما اتصفوا به من نقصان العاطفة الوطنية والجشع والتعصب الجنسي والشغف بالمال ونحوه ، فنسبوا إليهم تدبير الكوارث المالية والأزمات التي تصيب الشعوب ومن هنا كان اضطهادهم في وسط أوروبا وشرقيها .

وقد نهضت حركة العداوة في فرنسا لنفس الأسباب التي أدت إليها في غيرها من الدول ، وقواها إفلاس شركة بناما التي أنشأها دلسبس ، ثم اتهام الضابط اليهودي ألفرد دريفوس A . Dreyfus بإذاعة أسرار الوطن الحربية إلى ألمانيا ؛ واستمرت هذه القضية اثني عشر عامًا أشعلت فيها نار العداوة وزادت الخصومة وقدة واشتعالاً ، ونشط اليهود من ناحية أخرى لمقاومة هذا التيار الجارف في عداوته لهم ، فنهض بعضهم بالحركة الصهيونية التي تهدف إلى إقامة وطن قومي لليهود — في فلسطين — وزاد اليهود تضامنًا واتحادًا[1] .

وهكذا كانت أسباب اضطهاد اليهود أخيرًا ، أثارت مطامعهم غضب الشعوب واستفز تعصبهم الجنسي الحنق ، وأيقظت سيطرتهم على المال وهيمنتهم على الحكومات الحقد في الصدور وأصبحت الصهيونية مثار القلق في العالم الغربي كله ، وأحالت بقية عطفه على بني إسرائيل سخطًا يجتاح النفوس .

---

(1) كان فيلون الفيلسوف الإسكندري ت 50 م أكبر مفكري اليهود في عصره يستبعد من اليهودية كل طموح سياسي ، لأن اليهودية في عرفه دين وليست جنسًا ، وحسب اليهودي أن يكون مواطنًا في البلد الذي يقيم فيه .

تعقيـــب :

على النحو الذي أسلفناه نشأ التسامح عن حركة الإصلاح الديني مع تعصب أهلها ونزوعهم للاضطهاد ، وابتدع الحرية الدينية الصوصنية ومن إليهم ممن كانوا موضع سخط من الكنيسة وخصومها من المصلحين على السواء ، وكان للشك عند أصحاب المذهب العقلي أثره الفعال في زعزعة الأسس التي قام عليها الاضطهاد ، وتمهيد الطريق لقبول الناس لفكرة التسامح .

وكان من الظواهر الملحوظة ، أن تسبق انجلترا البروتستانتية في مضمار التسامح فرنسا الكاثوليكية ، وأن يظل كابوس التعصب البغيض جاثمًاعلى صدرها حتى تندلع ثورتها الكبرى ، وتحطم القيم المعروفة في رءوس الفرنسيين . وبفضل حاكم كبير القلب واسع العقل تحققت الحرية الدينية في أكمل صورها في بروسيا قبل غيرها من دول العالم .

بل إذا كان القرن الغابر قد أقر الحرية الدينية من الناحية الشكلية فإن التعصب لم يتخل عن نفوذه في نفوس الساسة والزعماء والناس إلى وقتنا الحاضر وسنرى في الفصل التالي كيف نص الوفد المصري في هيئة الأمم المتحدة في أخريات عامنا المنصرم (نوفمبر 1946) على مقاومة هذا التعصب البغيض في أوروبا الوسطى بوجه خاص . ومن أجل هذا آثرنا أن يكون عنوان فصلنا هذا « فجر التسامح الديني » .. لأن التسامح المطلق الكامل لم يشرق بعد ، وإن كان من المحقق أنه آت لا ريب فيه .

2 ــ الاضطهاد في الإسلام

بواعث الاضطهاد في الإسلام - معنى الزندقة في الإسلام - فشو الزندقة في العصر العباسي - اضطهاد المهدي والهادي للزنادقة - اضطهاد الزنادقة بعد الهادي - استئصال القرامطة - مذبحة الشيعة - من آثار الجمود في العصر الحديث - نماذج من شكوى الإمام - الجمود في وقتنا الحاضر - اتهام الفاروق باضطهاد الذميين - الاستشهاد في القرآن الكريم - الاستشهاد عند رسول الله - حب المؤمنين للاستشهاد في سبيل الله - القتال المباح في الإسلام - الجهاد في الإسلام - الحرية في الإسلام - موقف الإسلام من الذميين - سماحة الفاروق مع المسيحيين - أسباب ما أسلفناه من وجوه الاضطهاد - تعقيب .

* * *

بواعث الاضطهاد في الإسلام :

عرف الإسلام ــ كما عرف غيره من الأديان ــ غلاة المتزمتين من المؤمنين ، ولكن التعصب ــ فيما أشرنا من قبل ــ لا يفضي إلى الاضطهاد الدامي إلا متى

أيدته سلطة دنيوية تمكن أهل التزمت من إيذاء خصومهم . والإسلام لا يقر لأحد رجاله بسلطة يبسطها على غيره من أتباعه ، ولا يخص أحدًا ــ بالغًا ما بلغت مكانته ــ بتأويل نصوصه أو بالقدرة على غفران ذنب ارتكب ، إذ ليس لأحد فضل على أحد إلا بالتقوى ، وقد خطب أبو بكر يوم بويع بالخلافة فقال : أطيعوني ما أطعت الله ورسوله ، فإن عصيت الله فلا طاعة لي عليكم ! بل ليس رسول الله إلا مذكرًا ومبلغًا ، لا مسيطرًا ومهيمنًا ، ﴿ **فذكر إنما أنت مذكر * لست عليهم بمسيطر** ﴾ ، وقد فصل أئمة الدين في بيان ذلك[1] .

هذا من الناحية الشكلية ، أما الذي حدث بالفعل فهو أن بعض رجال السلطة الزمنية في الإسلام قد استجابوا في بعض مراحل تاريخه لتزمت المتعصبين من أهله ، أو انقادوا لتعصبهم الذميم أو لحرصهم على مصالحهم أو لرغبتهم في تملق الطبقات الدينية واكتساب مرضاة الجماهير ، وانطلقوا باسم الدين إلى قتال بعض الطوائف والفرق الدينية ومناهضة رواد الفكر الحديث ومقاومة كل خارج على تعاليم الإسلام ... ومن هنا دخلت السياسة وتولت باسم الدين ــ في كثير من الحالات ــ اضطهاد الأحرار[2] ، فكانت مذابح وحروب قيل إنها تشبه من بعض الوجوه ما عرفته المسيحية من مذابح وحروب ، وإن لم تصدر مع قلة عددها وخفة تبعاتها عن سياسة دينية أو مذهبية منظمة ترمي إلى قمع الزندقة وتهدف إلى التنكيل بكل من جنح عن تعاليم الإسلام .

وقد اتخذت الزندقة صورًا كثيرة حسبنا أن نشير إلى أظهرها :

---

(1) انظر ذلك في كتابنا الشعراني إمام التصوف في عصره ص 82 - 83 وفي كتابنا التصوف في مصر في إبان العصر العثماني ص 222 - 223 وفي كتابنا قصة النزاع بين الدين والفلسفة ص 131 - 132 .

(2) في كتابنا قصة النزاع بين الدين والفلسفة فصل مسهب عن موقف الإسلام وفقهائه من التفكير الفلسفي .

معنى الزندقة في الإسلام :

باستقراء ما كتبه ابن النديم والخياط وابن قتيبة وغيرهم ، نلاحظ أن الزندقة كانت تطلق على المانوية الذين كانوا يردون العالم إلى مبدأين هما النور والظلمة ، عن أولهما صدر الخير وعن ثانيهما نشأ الشر ، ويحرمون الزواج طلبًا لفناء الدنيا ويدعون إلى الزهد ... إلى آخر ما هو معروف عن مذهبهم . ثم أطلقت الزندقة بعد هذا على الإلحاد بوجه عام ، وكانت تعبيرًا عن الدهرية القائلين ببقاء الدهر(1) .

والملحوظ أنا لا نجد لفظ الزندقة في العصر الأموي إلا قليلاً ، ولكن الزندقة قد شاعت في أوائل العصر العباسي واستفاضت أنباؤها ، إذ كان البحث العلمي الذي يقترن في العادة بالشك والإلحاد أظهر في ذلك العصر منه في العصر الأموي ، وهذا بالإضافة إلى أثر الفرس في نشر المانوية والزرادشتية والمزدكية .

بل لقد اختلفت معاني الزندقة باختلاف الناس في ذلك العصر . فأطلقها العامة ـــ في عهد جعفر المنصور ـــ على الاستهتار والمجون والتدرج إلى الخروج عن الدين أحيانًا بألفاظ نابية ، ثم المغالاة في ذلك لمجرد التظرف ! وكانت تطلق عند الخاصة على الذين يدينون بدين المجوس باطنًا ـــ ولا سيما المانوية ـــ ويعتنقون الإسلام تقية أو توسلاً إلى إضلال الناس . وقد يظهر الزنادقة سافرين لا يكلفون أنفسهم مشقة التظاهر بالتدين ، كما يلاحظ عند أتباع دين المجوس .

وقد كان من معاني الزندقة الإلحاد الذي يتأدى بأصحابه إلى جحود الأديان جميعًا ، وكانت الرغبة في التخلص من تكاليف الدين من بواعث انتشارها بين المجان والمستهترين .

---

(1) احمد بك أمين : فجر الإسلام ص 127 - 129 طبعة ثانية ـــ وانظر مادة زندقة للمستشرق ماسنيون في دائرة المعارف الإسلامية .

فشو الزندقة في العصر العباسي :

وقد كانت حركة الزندقة والإيمان ـــ فيما يقول الأستاذ الجليل أحمد بك أمين ـــ في قتال مستحر ، استخدمت فيه وسائل الحروب من خدع ومكائد ووسائل سرية ولجوء إلى السيف وسفك للدماء أحيانًا ، وعقد مجالس ومقارعة بالحجج أحيانًا ثم الحرب سجال ، يوم ينتصر فيه الملحدون بما يثيرون من شكوك وأوهام ، وبما يضللون من ناشئة وشبان ، فإن عجزوا ظاهرًا استعملوا طرق الغواية سرًا تحت مظهر التشيع أو الغيرة على الإسلام أو نحو ذلك ؛ ويوم ينتصر فيه المؤمنون فينكلون بالملحدين تنكيلاً ، ويوقعون بهم قتلاً وتشريدًا ، ثم بما يؤلفون من كتب ينقضون شبههم ويبطلون حججهم .

اضطهاد المهدي والهادي للزندقة :

وقد وقعت أظهر حركات التنكيل بالزنادقة في عهد المهدي ، إذ عين رجلاً وكل إليه أمرهم ، هو عبد الجبار المحتسب صاحب الزنادقة فيما ورد في الأغاني ، فأمر بسجنهم وإعدام بعضهم وإبادة كتبهم ! وقد أمعن في قتل الملحدين الذين ظهروا في أيامه وأعلنوا اعتقاداتهم في خلافته ، وكانت هذه أول مرة عين فيها رجل يوكل إليه البحث عن الزنادقة والتنكيل بهم ، وكان المهدي أول من أمر الجدليين من أهل البحث من المتكلمين بتصنيف الكتب في الرد على الملحدين ، أي أنه نظم دارًا للبحث عنهم ومحاكمتهم ، وكون هيئة علمية لمناظرتهم وتأليف الكتب في تفنيد أدلتهم ودحض مزاعمهم .

وقد نصح ابنه الهادي في متابعة سياسته في التنكيل بهم قائلاً : يابني إن صار لك هذا الأمر فتجرد لهذه العصابة ـــ المانوية ـــ فإنها فرقة تدعو الناس إلى ظاهر حسن كاجتناب الفواحش والزهد في الدنيا والعمل للآخرة ، ثم تخرجها إلى تحريم

اللحم ومس الماء الطهور وترك قتل الهوام تحرجا وتحوبًا ، ثم تخرجها إلى عبادة اثنين أحدهما النور والآخر الظلمة ، ثم تبيح بعد هذا نكاح الأخوات والبنات والاغتسال بالبول وسرقة الأطفال من الطرق ، لتنقذهم من ضلال الظلمة إلى هداية النور ؛ فارفع فيها الخشب وجرد فيها السيف ، وتقرب بأمرها إلى الله لا شريك له ، فإني رأيت جدك العباس في المنام قلدني بسيفين ، وأمرني بقتل أصحاب الاثنين . فقال موسى (ابنه الهادي) بعد أن مضت من أيامه عشرة أشهر : أما والله لئن عشت لأقتلن هذه الفرقة كلها حتى لا أترك منها عينًا تطرف . ويقال إنه أمر أن يهيأ له ألف جذع ، فقال هذا في شهر كذا ومات بعد شهرين » .

وقد نفذ الهادي وصية أبيه وقتل من الزنادقة الكثيرين . وبلغ الاضطهاد أقصى مظاهره بين سنتي 166 و 170 هـ ، إذ كان الزنادقة يؤخذون بالظنون والريب ، وكانوا إذا كابروا وأبوا العدول عن زندقتهم أعدموا .

اضطهاد الزنادقة بعد الهادي :

وقد سلك هارون الرشيد مسلك سلفيه من الخلفاء ، فتعقب الزنادقة مع أنه أمن من كان هاربًا أو مستخفيًا . وتابعه المأمون فكان يمتحن الزنادقة الذين اتهموا باعتناق المانوية فيأمرهم بأن يتفلوا على صورة ماني ، أو غير هذا مما يكشف عن حقيقة عقيدتهم ، فإن أبوا أمر بإعدامهم[1] .

وقد بلغ الإلحاد ذروته في القرن الثالث عند ابن الراوندي ، وتحول عنده إلى مذهب عقلي يقوم على إنكار النبوة ومهاجمة الوحي وتمجيد العقل ونقد المعجزات

---

(1) لخصنا الزندقة في العصر العباسي عن الفصل السادس من الجزء الأول من ضحى الإسلام ــ طبعة ثانية ــ للأستاذ الجليل أحمد بك أمين ــ وقد اعتمد في بحثه للزندقة على الأغاني والطبري والمسعودي والعقد الفريد وغيره .

وإعجاز القرآن والتواتر كمصدر للمعرفة . وبدا مثل هذا الإلحاد عند زكريا الرازي في تمجيده للعقل ونقده للأديان كلها ومهاجمته للكتب المقدسة وإعجاز القرآن والقول بكفاية العقل لهداية الإنسان .. إلخ[1] .

وإذن فقد وقعت في بعض مراحل الإسلام ألوان من الاضطهاد ، وفي ذلك تساق بعض الشواهد :

استئصال القرامطة :

فشت الزندقة في مطلع القرن الرابع على يد القرامطة الذين زعم شيخهم ــ فيما يروي أبو الفداء الحموي ــ أنه داعية المسيح وأنه الكلمة وأنه ابن الحنفية وأنه جبريل وأنه المسيح يصور في جسم إنسان ، وقال له إنك الداعية وإنك روح القدس ... وقد جعل قبلته بيت المقدس ، والصلاة أربع ركعات ثنتين منها قبل طلوع الشمس وثنتين قبل غروبها ، وأحل الخمر ... إلخ . وكثر أتباعه وغزوا مكة ، وفتحوا دمشق الشام واستولوا على الكوفة ، وكان منهم الراوندي ــ الذي أسلفنا ذكره منذ حين ــ ويقول ابن الأثير إنهم سموا بعد ذلك بالإسماعيلية أو الباطنية ، وقد فشى مذهبهم في بلاد الفرس واستولوا فيها على كثير من الحصون والقلاع ، فطوردوا رغبة في استئصالهم واشتد حصار بعضهم في قلعة على كثب من أصبهان ، فكتبوا فتوى للسادة الفقهاء أئمة الدين عن رأيهم في « قوم يؤمنون بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وأن ما جاء به محمد ﷺ حق وصدق ، وإنما يخالفون في الإمام ؛ هل يجوز للسلطان أن يقبل طاعتهم ويحرسهم من كل أذى ؟ » فأجاز أكثر الفقهاء ذلك وتوقف عنه بعضهم ، وقال أبو الحسن علي السمنجاني : « يجب قتالهم ولا يجوز إقرارهم ، ويجب أن يقال لهم : أخبرونا عن إمامكم إذا أباح لكم ما حظره الشرع أو حظر عليكم

---

(1) انظر في تفصيل هذا : من تاريخ الإلحاد في الإسلام لزميلنا الدكتور عبد الرحمن بدوي (1945) .

ما أباحه الشرع ، أتقبلون أمره ؟ فإنهم يقولون : نعم ، وحينئذ تباح دماؤهم بالإجماع » واستطال الجدل بينهم ولكنه انتهى بإبادتهم جميعًا .

مذبحة الشـــيعة :

وقد روى ابن الأثير وقوع مذبحة للشيعة عام 1407 هـ ، إذ قتل منهم كثيرون ، وأحرقوابالنار ونهبت ديارهم وقتلوا في جميع إفريقيا ، واجتمع جماعة منهم أمام قصر المنصور ــ الفاطمي ــ قرب القيروان ، فحصرهم العامة وضيقوا عليهم حتى اشتد عليهم الجوع ، فصاروا يخرجون والناس يقتلونهم حتى قتلوا عن آخرهم ، ولجأ من كان منهم بالمهدية إلى الجامع فقتلوا كلهم ! » .

وأكثر الشعراء من ذكر هذه المأساة ، بين حزين يؤذيه قسوتها ، ومبتهج يستخفه أمرها ! ويعلق المرحوم فرح أنطون على هذه الحادثة بقوله : إنها شبيهة بمذبحة سان بارثلميو !! .

من آثار الجمود في العصر الحديث :

والمعروف أن الاضطهاد قد تسبقه مرحلة جمود وتزمت ، يضيق فيها الناس بكل جديد لم يألفوه من قبل ، وقد يبادرون باتهام أهله بالمروق والكفر وعندئذ يكون الاضطهاد ، إذ كثيرًا ما تستجيب السلطات المدنية لمشاعر الجامدين وتنكل بكل من جنح عن القديم المألوف ، أو تضيق عليه الخناق على أقل تقدير ــ وهذا نفسه مظهر من مظاهر الاضطهاد ــ وقد نزل الجمود بالمسلمين وأقام بينهم طويلا ، وكان مثار الشكوى عند رواد الفكر الحديث والمستنيرين من أئمة الدين على السواء ، ومهد هذا الجمود لإغراء الجماهير بالتضييق على رواد الفكر ومطاردتهم وإثارة الفزع في نفوسهم ، حتى تسكت أصواتهم ويكفروا عن مخاصمة ما ألف الناس ! وقد شكا

الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده من ذلك كثيرًا وساق أمثلة وقعت في عهده حسبنا ذكر بعضها . والأمثلة وإن كانت فردية إلا أنها تشير إلى الروح الذي كان يهيمن على المعسكرات المحافظة في ذلك العصر ، وتنبئ عن مدى ما اعتراها من جمود ، ومبلغ ما كان يخامرها من نزوع للاضطهاد ، وهو نزوع كان يمكن أن يشتد بأسه وتسوء مغبته ، لو أنه اقترن بسلطة زمنية تمكن أهله من تحقيقه :

نماذج من شكوى الإمام :

فمن ذلك أن مسلمًا في غير مصر قد كتب بضع مقالات في الاجتهاد والتقليد ذهب فيها إلى ما ذهب إليه جميع أئمة المسلمين ، ونشر مقالاً عن مذهب الصوفية صرح فيه بأن الإسلام لم ينتفع به بل رزئ به أو ما يقرب من ذلك ــ وهو قول قال به جمهور أهل السنة من قبل . فلما نشرت في مصر تحت اسمه مقالاته « هاج حملة العمائم ، وسكنة الأثواب العباعب ، وقالوا إنه مرق من الدين أو جاء بالإفك المبين » ثم رفع أمره إلى الوالي ، فقبض عليه وألقي به في غياهب السجن ! ولم يعف عنه إلا بعد أشهر ! .

ووضع السنوسي ــ والد السنوسي صاحب جغبوب ــ كتابًا في أصول الفقه زاد فيه بعض مسائل على أصول المالكية ، وصرح في كتاب له أنه يفهم الأحكام من الكتاب والسنة مباشرة ، وأنه قد يرى ما يخالف رأي مجتهد أو مجتهدين « فعلم بذلك أحد المشايخ المالكية ــ رحمه الله تعالى ــ وكان المقدم في علماء الأزهر الشريف ، فحمل حربته وطلب الشيخ السنوسي لطعنه بها ، لأنه خرق حرمة الدين واتبع غير سبيل المؤمنين ..! ولكن الله قد وقاه شر هذه الجريمة ، إذ غادر القاهرة قبل وقوعها .. ! .

ونشر بعض علماء الأزهر مقالات مسهبة يستهجنون فيها إدخال علم الجغرافيا

في مناهج الدراسة في الأزهر ، ويعرضون بمن أشار بإدخالها ويطعنون في عرضه ! .

وعلماء الأفغان والهند والعجم ـــ فيما يقول الإمام ـــ على تمسك بالقديم شديد ، ينهضون لمحاربة كل من حاول أن يخرج بهم قليلاً عما ألفوه مما كان عليه أسلافهم ، بل كانت تغالي حكومة المغرب حتى تعاقب ببتر بعض الأعضاء لمن ارتكب شرب الدخان ! أو بالقتل من أجل « كلمة ينكرها السامعون وإن أجمع عليها المسلمون الآخرون » !! .

وكان المتوقع أن يثور اضطراب الأزهر متى أشار أحد بدراسة مبادئ الطبيعة أو التاريخ الطبيعي ، فتقوم « قيامة المتقين ويصيحون أجمعين أكتعين : هذا عدوان على الدين ، هذا توهين لعقده المتين ، هذا تغرير بأهله المساكين .. »[1] .

الجمود في وقتنا الحاضر :

وقد تردد صدى هذه النغمة بعد موت الإمام ، في موقف الأزهر الشريف من كتاب « الشعر الجاهلي » وكتاب : « الإسلام والحكم في مصر » وقد لقي المؤلفان الكثير من المتاعب من جراء ذلك[2] ، بل لبث الاتهام بالكفر قائمًا إلى عهد قريب ولعل آخر عهدنا به كان يوم وجه على صفحات الأهرام للتهديد بلجنة جامعية تشكلت لتيسير قواعد النحو على طلاب المدارس فيما أذكر ! وكان لأحد أعضائها رد رصين متزن أسدل الستار على هذه الضجة .

---

(1) محمد عبده : الإسلام والنصرانية ص 130 وما بعدها .

(2) كانت جماعة كبار العلماء قد جردت في عام 1925 مؤلف الكتاب الثاني من لقب العالمية ، وبعد نحو اثنين وعشرين عامًا ـــ عند طبع هذا ـــ أعدت رياسة مجلس الوزراء مرسومًا ملكيًا بتعيين هذا المؤلف وزيرًا للأوقاف ، فأثار بعض حضرات العلماء مشكلته القديمة لأن قانون الأزهر لا يجيز لمن أدين على هذا النحو أن يشغل وظيفة عامة ، ووقف بالفعل تعيينه . ولكن العلماء قد عادوا والتمسوا من جلالة الملك إصدار عفو عنه توطئة لتعيينه وزيرًا .

وفي الحق لقد تغير الناس في مصر — وفي غير مصر في بلاد العالم الإسلامي فيما يلوح — وما من شك في أن المرحلة الأخيرة من عصرنا الحديث تبشر بتطور له خطره العظيم في حياتنا المقبلة ، وقد وقف الأزهر الشريف في طليعة هذه الحركة ، وأصبح لعلمائه الصدارة في مهاجمة الجمود وإنارة الأذهان وتطهير الصدور من أدران الحقد والتعصب .

حسبنا هذا عما قيل عن اضطهاد الزنادقة في الإسلام ، ولنعرض في إيجاز إلى بعض ما قيل عن اضطهاد الذميين :

اتهام الفاروق باضطهاد الذميين :

ومن طريف المفارقات أن يتهم الفاروق باضطهاد الذميين من مسيحيين ويهود ! قيل إنه أول من وضعهم في مرتبة أدنى من مرتبة المسلمين ، وغالى في هذا الصدد حتى أذل أعناقهم جهرة عيانًا ! روى ابن عبد الحكم أن عمر بن الخطاب قد « كتب أن يختم في رقاب أهل الذمة بالرصاص ، ويظهروا مناطقهم ويجزوا نواصيهم ويركبوا على الأكف عرضًا ، ولا يضربوا الجزية إلا على من جرت عليه المواسي ، ولا يضربوا على النساء ولا على الولدان ، ولا يدعوهم يتشبهون بالمسلمين في لبوسهم[1] ، وقيل إنه حرم عليهم رفع الصليب على كنائسهم أو العمل على إقامة كنائس أو بيع جديدة .. إلخ . ويقال إن هذا قد مهد لاضطهاد الذميين في الفترات التي اشتد فيها جمود الناس . ولنا على ذلك تعليق نرجئه إلى حينه .

قيل إن الإسلام يحمل نصيبًا في تبعة ما أسلفنا من وجوه الاضطهاد ، وربما قيل في التدليل على هذا إن القرآن يؤيد الاستشهاد في سبيل الله تأييدًا مطلقًا ، فلنقف

---

(1) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ع 4 ص 151 طبعة ليون 1920 م .

هنا وقفة قصيرة لنعرض ما يحتمل أن يقال في هذا الصدد ، ونعقب بمناقشة عسى أن يضيء لنا هذا ما يبدو مظلمًا في جوانب موضوعنا :

الاستشهاد في القرآن الكريم :

أقر القرآن الكريم الاستشهاد في سبيل الله وأكبر من شأن الشهداء الذين يقعون صرعى في ساحة الجهاد قال تعالى : ﴿ **ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون * ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين * الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون * أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون** ﴾[1] .

وتأكد هذا المعنى في قوله تعالى : ﴿ **ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتًا بل أحياء عند ربهم يرزقون * فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾[2] .

فأما الآية الأولى فقد نزلت في شهداء بدر الذين بلغوا أربعة عشر رجلاً ، إذ قال المنافقون ــ أي المتظاهرون بالإسلام ــ إن الشهداء يقتلون أنفسهم مرضاة لمحمد على غير هدى ، فنزلت الآية الكريمة تحث على الاستعانة بالصبر والصلاة وعدم الظن بأن الشهيد قد ضيع نفسه ، وتصرح بأن المشركين يجهلون أن الشهداء أحياء في الدين وعلى هدى من ربهم ونور ، وأنهم سيثابون وينعمون في الجنة : ﴿ **إن الأبرار لفي نعيم * وإن الفجار لفي جحيم** ﴾ . وتنذر الآية الشهداء بأنهم سيعانون

---

(1) سورة البقرة آية 154 - 157 .
(2) سورة آل عمران آية 169 - 170 .

المشقات ولكن القيام بالشرائع يتطلب احتمال المحن ، وهذا ابتلاء يراد به أن يوطن الإنسان نفسه على الصبر فيبعد عنه الجزع ، والابتلاء محك الصدق في الإيمان .. وليست المحن في هذا الصدد عقوبات ، فقد وعد الله ــ بذلك ــ المؤمنين وفي مقدمتهم الرسول وصحبه[1] .

أما الآية الثانية فقد نزلت في شهداء بدر وأحد ، حين ثبط المنافقون الراغبين في الجهاد فقالوا إنه يفضي إلى الموت ، كما قالوا ذلك في حق من فزع إلى الجهاد يوم أحد ، وقالوا إن القتل شيء مكروه ، وردت دعواهم بأن القتل إنما يحدث بقضاء الله وقدره ، وكذلك الحال في الموت فالاحتراز لا يجدي صاحبه ، ثم إن القتل في سبيل الله غير مكروه لأن أصحابه يلبثون أحياء[2] ، وقد خصهم الله بدرجات القربة والكرامة ومنحهم أفضل أنواع الرزق وأوصلهم إلى أجل مراتب الفرح والسرور ، ومن قعد عن الجهاد جاز أن يفوز بنعيم الدنيا وهو تافه زائل ، ومن خف للجهاد فاز بنعيم الآخرة وهو عظيم ومقيم[3] .

الاستشهاد عند رسول الله :

كان طبيعيًا بعد هذا أن يكون حظ الاستشهاد من إكبار رسول الله عظيمًا ، وليس أدل على ذلك من موقفه من شهداء غزوة مؤتة بوجه خاص ، إذ استشهد فيها ــ على ما أشرنا في الفصل الأول من هذا الكتاب ــ زيد بن حارثة ثم جعفر ابن أبي طالب ، وقد أخذ الراية منه ابن رواحة وتقدم بها وهو على فرسه ولكنه

---

(1) رجعنا في تفسير هذه الآية إلى الفخر الرازي في مفاتيح الغيب ج 2 ص 35 وما بعدها .

(2) اختلف المفسرون في تأويل هذا اللفظ ، ولعل أدنى ما قيل إلى العقل ، إنه تعبير مجازي كما يقال للجاهل الذي لا ينفع نفسه ولا غيره إنه ميت ، ولمن خلف الذكر الطيب إنه حي لم يمت ، وقد فصل الرازي كعادته في بيان الخلاف بين المتعلمين والفلاسفة في معنى الفرح الوارد في الآية وفي معاني غيره من ألفاظ ، فليرجع إليه من شاء مزيدًا .

(3) انظر في تفسير الآية الرازي في مفاتيح غيبه ج 3 ص 93 وما بعدها .

تردد بعض التردد ثم تناول سيفه وتقدم به مقاتلاً حتى راح شهيدًا .

ولما علم النبي نبأ هؤلاء الشهداء الثلاثة « كان على زيد وجعفر أكبر أسى ، وقال : لقد رفعوا إلي في الجنة فيما يرى النائم على سرر من ذهب ، فرأيت في سرير عبد الله بن رواحة ازورارًا عن سريري صاحبيه ، فسأل لم هذا ؟ فقيل له : مضيا وتردد عبد الله بعض التردد ثم مضى » .. ! .

بهذا أوجب رسول الله على المؤمن ألا يمتنع أو يتردد عن الموت في سبيل الله ، وأن يحمل حياته على كفه ويلقي بها في وجه من يقف في سبيله ، فإما ظفر بالغاية أو استشهد في سبيلها .. وملعون من ينكص على عقبيه طمعًا في جاه أو مال أو غرض من أغراض الحياة[1] .

حب المؤمنين للاستشهاد في سبيل الله :

كان طبيعيًا بعد هذا ، أن يهز حديث الاستشهاد نفوس المؤمنين ، ويدفعهم إلى ساحة الوغى وقد استخفهم الرضا وشاعت فيهم الغبطة طولاً وعرضًا ، وما نسوق إلا شاهدًا واحدًا ندلل به على صدق ما نقول ، ذلك ما كان من أمر المؤمنين وإقدامهم على القتال يوم أحد ، إذ رأى بعض المسلمين أن يتحصنوا بالمدينة ورأى غيرهم أن يخرجوا للقاء العدو ، وقد أثاروا القلوب بالتحدث عن الشجاعة والاستشهاد ، وعن الجنة التي أعدت لمن يقتل في سبيل الله ، وقد قال خيثمة أبو سعد بن خيثمة : « عسى الله أن يظفرنا بهم أو تكون الأخرى فهي الشهادة ، لقد أخطأتني وقعة بدر وكنت عليها حريصًا ، حتى بلغ من حرصي عليها أن ساهمت ابني في الخروج ، فخرج سهمه فرزق الشهادة . وقد رأيت ابني البارحة في النوم

---

(1) هيكل ص 393 - 394 .

وهو يقول : ألحق بنا ترافقنا في الجنة ، فقد وجدت ما وعدني ربي حقًا . وقد والله يا رسول الله أصبحت مشتاقًا إلى مرافقته في الجنة ، وقد كبرت سني ورق عظمي وأحببت لقاء ربي »[1] .

كان طبيعيًا جدًا أن يحدث هذا وأكثر منه ، بعد الذي لقيه الاستشهاد في آيات العزيز الحكيم وأحاديث رسوله الأمين من وجوه الثناء والإكبار ، ومن أجل هذا كانت حماسة المؤمنين في قتال المشركين ومن إليهم ممن يخشى أن تعصف ثورتهم بالعقيدة التي نزل بها الإسلام . وباسم هذه الروح ــ فيما يقال ــ قد وقعت بعض الملاحم ، مع براءة الدين من وصمات الإكراه ، وصراحته في تحامي وقوع المذابح والفتن والحروب .

القتال المباح في الإسلام :

في الحق إن الوحي قد نزل بالتسامح على محمد منذ هجرته ، فجنح للسلم ورغب عن القتال ، واقتصد فيه طوال حياته أشد القصد ، وإنما أبيح القتال في سبيل غاية واحدة هي كفالة العقيدة والرأي ، وفي سبيل الدفاع عنها : « أبيح دفع المعتدي حتى لا يفتن أحد عن دينه ، ولا يظلم أحد بسبب عقيدته أو رأيه »[2] .

على أن الإسلام ينكر حرب الاعتداء : ﴿ **ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين** ﴾[3] ، ولكن دفع فتنة المؤمنين عن دينهم بالقوة ، كان الغاية الأولى التي شرع من أجلها القتال ، ويشهد بهذا ما نزل من الآيات في سرية عبد الله بن جحش

---

(1) المصدر نفسه ص 283 - 284 .

(2) هيكل : حياة محمد ص 217 - 218 و 561 من الطبعة الثانية وقد رجع في تفسير الآية السالفة إلى الطبري وابن جرير .

(3) البقرة آية 190 .

الأسدي ، فقد أحل الله القتال من أجل هذه الغاية في الشهر الحرام ، قال تعالى : **﴿ يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ﴾**[1] .

ومعنى هذا أن القتال في نظر القرآن من الكبائر ، ولكن الصد عن سبيل الله والكفر ، أكبر من القتال في الشهر الحرام ، « وفتنة الرجل عن دينه بالوعد والوعيد والإغراء والتعذيب ، أكبر من القتل في الشهر الحرام وفي غير الشهر الحرام » وقد ظن بعض المستشرقين أن محمدًا يدعو بهذا إلى القتال والجهاد بالسيف في سبيل الله ، وإكراه الناس بالقوة على اعتناق الإسلام ، وهذه فرية تشهد بها آيات الله في كتابه المجيد كما سنعرف بعد قليل .

الجهاد في الإسلام :

فالجهاد في الإسلام معناه : « قتال الذين يفتنون المسلم عن دينه ، ويصدون عن سبيل الله » فهو دفاع عن الرأي بسلاح الذين يهاجمون هذا الرأي ، متى كان هذا ممكنًا[2] .

وقد أقر الإسلام قتال الثائرين على عقيدته المعنوية العامة ، فإن كانت ثورتهم جامحة وجب قتالهم حتى يذعنوا ، وإن كانت غير جامحة ــ كثورة أهل الكتاب ــ وجب أن يلزموا بدفع الجزية عن يد وهم صاغرون . ومن التجني أن يعاب هذا بحجة أنه محاربة لحرية الرأي ، فإن الحضارة الأوربية الحديثة وإن كانت تقوم على

---

(1) البقرة : من آية 217 .
(2) انظر هذا مفصلاً في هيكل ص 243 - 247 .

حرية الرأي ، فإنها ترى أن التشريع ليس إلا قمعًا لحرية الرأي له ما يسوغه ، وأن الثورة على الشر واجب لا مفر منه ، ومن أجل هذا حاربت الرق ومحلات العري وإفساد الأخلاق ونحوه[1] .

فالجهاد ــ وحسبنا منه معناه ومبرراته في الإسلام ــ هو استفراغ الوسع في مدافعة العدو ومجاهدة الشيطان والنفس ، ومن غايات القتال في الجهاد منع الفتنة في الدين ، أي منع اضطهاد الناس من أجل دينهم وإكراههم على تركه ، وقد فرض القتال على المؤمنين ليقاتلوا من يقاتلهم ويعاديهم في دينهم .

ومسألة جهاد العدو بالسيف ليس فيها إجماع من المسلمين إلا في حالة اعتداء الأعداء إذ يتعين الجهاد : عندما يلتقي الجيشان ، أو ينزل الكفار ببلد ما ، أو يستنفر الإمام قومًا فيلزمهم النفير معه .

والإسلام ــ بعد هذا ــ يمنع الحرب للإكراه على الدين أو الإبادة أو الاستعباد الشخصي أو القومي أو لسلب الثروة أو القهر أونحوه[2] .

الحرية في الإســلام :

وقد أقرت شريعة الإسلام حرية الضمير والعبادة وكفلتها لأتباع كل دين يحيا في ظل الإسلام ، ومنع الإكراه على اعتناقه ، قال تعالى في سورة البقرة : ﴿ **لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي** ﴾ وقال في نفس السورة : ﴿ **وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين** ﴾ وقال تعالى في سورة آل عمران : ﴿ **وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر** ﴾ وقد

(1) هيكل ص 458 - 462 .
(2) السيد محمد رشيد رضا في الجزء الحادي عشرمن تفسيره .

عقب رسول الله بفيض من الأحاديث النبوية يؤيد بها التسامح المحمود ــ وهذه الأحاديث لم تصدر عن حماسة رجل ضعيف لا حول له ولا قوة ، ولا عن فلسفة حالم قصت القوى المعادية جناحه ، ولكنها صدرت عن رجل كان في أوج قوته على رأس أمة فتية منظمة قادرة على أن تفرض بحد السيف عقيدتها . و لم تكن الدعوة إلى التسامح في الإسلام وليدة الضعف والحاجة إلى المعاملة اللينة ، بل لقد صاغ محمد التسامح قانونًا أقر فيه حرية العبادة حقًا للشعوب المهزومة ، ومن أبى منهم الإسلام ألزم بدفع الجزية وبقي حرًا في عقيدته ــ فلم يزاول الإسلام الاضطهاد و لم ينشئ رجاله قط محكمة تفتيش ...[1]

موقف الإسلام من الذميين :

أشرنا فيما أسلفنا إلى أن الإسلام لا يقر القتال لغير الثائرين على عقيدته ، بل يقنع بالجزية ممن كانت ثورتهم غير جامحة ، وحين اطمأن رسول الله في مقره بيثرب وضح اتجاهه إلى تأييد كل من اتبع الهدى ودخل في دين الله ، وظهر حرصه على كفالة حرية العقيدة لأتباعه وغير أتباعه على السواء ، بحيث يتساوى عندها المسلم والنصراني واليهودي جميعًا ــ قال تعالى : **﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحًا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾**[2] .

وبهذا أقر القرآن التسامح في أرحب آفاقه ، فمن آمن بالله واليوم الآخر وعمل

---

(1) Ameer Ali, The Spirit of Islam Part II ch, 4. وخصوصًا ص 212 ، 213 .
وانظر مقارنته بين تسامح الإسلام وتعصب غيره من الأديان في هذا الفصل وغيره .

(2) سورة البقرة . آية 62 ، والمراد بالذين هادوا من اعتنقوا اليهودية وبالصابئين من لا دين لهم ، وهم الذين يعبدون الملائكة . أو هم الذين يدينون بالتوحيد وليس لهم كتاب ولا نبي ، على خلاف في التأويل .

صالحًا فله أجره عند ربه ، من غير تفرقة بين المؤمنين وغيرهم من اليهود والنصارى والصابئين .

ومن هنا يستبعد المنصف ما اتهم به الفاروق من اضطهاد الذميين أو إساءة معاملتهم ، فإن من يدين بالإسلام الصحيح ويعرف ألا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى ، لا يمكن إلّا أن تصفو نفسه من إحن التعصب ، ويفيض قلبه بالتسامح والعفو والرحمة .

سماحة الفاروق مع المسيحيين :

وحسبنا في دحض اتهام الفاروق باضطهاد الذميين أن نذكر نص الصلح الذي عقده مع رسل صفرنيوس أسقف بيت المقدس كنموذج لموقفه من المسيحيين إذ قال في رواية الطبري :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان : أعطاهم أمانًا لأنفسهم وأموالهم ، ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها ، إنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من غيرها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم ، ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود . وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن . وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم ، ومن أقام منهم فهو آمن وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية ، ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلي بيعهم وصلبهم فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم . ومن كان بها من أهل الأرض فمن شاء منهم قعد وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية . ومن شاء سار مع الروم ومن شاء رجع إلى أهله . وإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى

يحصد حصادهم ، وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية » ـــ وختم عمر الكتاب بتوقيعه وشهد عليه خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعبد الرحمن بن عوف ومعاوية بن أبي سفيان .

وهكذا كان عمر بن الخطاب مع قبط مصر أقرهم وأمنهم على أموالهم وأنفسهم وعقائدهم ، فلا يضبار أحد بسبب دينه ولا يكره على شيء في أمره ، من شاء منهم أن يرحل مع الروم كان له ما أراد ، ومن شاء من الروم والأجانب المقيمين بالمدينة أن يظل بها بقي آمنًا وليس على أهل المدينة إلا أداء الجزية لقاء منعهم وكفالة أمنهم[1] . وبمثل هذا كان يعامل الفاروق الذميين فيما نعلم .

أسباب ما أسلفناه من وجوه الاضطهاد :

إذا كان هذا هو موقف الإسلام والمؤمنين من أهل الذمة ، فكيف وقع ما رويناه من وجوه الاضطهاد في بعض مراحل التاريخ ؟ إن الاضطهاد الذي وقع في العصر العباسي مرجعه في الأغلب والأعم إلى أسباب سياسية أو خصومات شخصية أو أدبية أو عقلية لا يحمل الدين وزرها ، ومثل هذا يقال في كل وجوه الاضطهاد التي تعزى إلى الإسلام زورًا وبهتانًا .

أما استئصال القرامطة فإن مرجعه إلى ثورتهم الجامحة على العقيدة الإسلامية ، وتمردهم على أبسط قواعد الأمن ، ومن أجل هذا كان قتالهم اتقاء لشرهم ودفعًا لعدوانهم ومنعًا لحركات السلب والنهب والتدمير ، وحرصًا على كفالة الأمن والسلام بين الناس .

---

(1) هيكل ج 1 الفاروق ص 250 - 251 طبعة أولى .

وأما تشبيه موقعة الشيعة بمذبحة سان بارثلميو ، فحسبنا في التعليق عليه أن نذكر القارئ بما رويناه عن تلك المذبحة وموقف أولي الأمر منها وابتهاج البابا بآثارها ، لنعرف الفرق بين معركة ينص مؤرخها — ابن الأثير — على أن قتلتها هم « العامة » وبين مذبحة يدير أمرها ويطرب لها أهل الحكم الديني والسياسي معًا ! وإن كان من الإنصاف أن نقول إن الديانتين بريئتان من وصمة الدم الذي أريق في كلتيهما .

تعقيـــب :

وهكذا مكن الإسلام لمبدأ التسامح وأقر حرية الضمير والاعتقاد بما لا يدع مجالاً للشك ، فحرم الإكراه على اعتناق الدين في وقت كان يقوى فيه على فرض عقيدته بحد السيف ، وقنع من الذميين بدفع الجزية وكفل لهم حرية العبادة . ولم يبح القتال إلا حرصًا على كفالة العقيدة والرأي ، ودفعًا للمعتدي حتى لا يفتن امرؤ عن دينه ولا يضار أحد بسبب عقيدته ، وفي سبيل هذا وحده أحل القتال وكان الاستشهاد في سبيل الله موضع الثناء والتقدير .

أما ما عرف في بعض مراحل الإسلام من وجوه الاضطهاد — مع قلته وخفة تبعاته — فإن مرجعه كما قلنا إلى أسباب سياسية أو دوافع شخصية أو بواعث عقلية — وهي أسباب لا يحمل الدين وزرها في كثير ولا قليل .

وقاتل الله الذين اتخذوا الإسلام — و غيره من الديانات — ستارًا يخفون وراءه نزعاتهم الشريرة ، ويرتكبون باسمه من الآثام ما نزلت الأديان لتدفع الناس عن ارتكابه ، وتصرفهم إلى أسمى مبادئ الخير والحق والجمال ، ولا عبرة بعد هذا بما يحتمل أن يقال من أن نصوص العقائد إن برئت من دم الجريمة الآثم ، حملت آثارها السيكولوجية في نفوس المؤمنين بها وزر إثمها عدلاً وإنصافًا ، أو كان لها في تبعة الاضطهاد نصيب على أقل تقدير ، إن في هذا تجنيًا صارخًا واضح البطلان ، لأنه يكاد يلغي الفروق التي تفصل بين البراءة والإجرام .

كلمـــة أخيـــرة

كلمـــة أخيـــرة

بدء التسامح الديني ـ مراحل التسامح ـ أثر المذهب العقلي في تقويض الاضطهاد ـ انتفاء العدالة باجتماع التعصب والسلطة ـ متى ينجح الاضطهاد ومتى يفشل؟ ـ التسامح الديني بين المدنية الأوروبية والقرآن الكريم ـ استمرار التعصب الديني في أوروبا الحديثة ـ موقف مصر الحديثة من مقاومة الاضطهاد ـ موقف المسيحية من التعصب في أوروبا ـ تبعة النصوص المقدسة في الاضطهاد .

* * *

بدء التسامح الديني :

منذ ثلاثة وعشرين قرنًا من الزمان ، اصطرعت في الهند « البرهمانية والبوذية » ، وضاق بصراعهما الملك الهندي السمح « أسوكا » Asoka ، فأصدر مرسومًا يقضي بأن تتساوى حقوق هاتين الديانتين وامتيازاتهما في ملكه .. ! فكان هذا أول مرسوم بالتسامح الديني في تاريخ البشر ..! .

أما في أوروبا فإن أول مرسوم قضى بالتسامح قد صدر في عام 311 وتلاه مرسوم

ميلان عام 313 من ميلاد المسيح ، على ما عرفنا عند الحديث على الاضطهاد الذي نزل بالمسيحية ، ولكن هذين المرسومين لم يقضيا على الاضطهاد ، بل حولا دفته ..! إذ بدأت الكنيسة تتولى خصومها بالاضطهاد وكانت إلى الأمس القريب من ضحاياه ! .

مراحل التسامح :

ولبث الحال على هذا — بوجه عام — حتى ثارت مشكلة التسامح الديني في القرن السادس عشر ، حين اشتد النزاع بين معسكر المصلحين من البروتستانت ، وظهر التسامح في صور متعددة عاشت عدة قرون ! تراوحت فيها بين الرغبة في منحه لبعض الشيع المسيحية دون غيرها ، أو لأتباع المسيحية على اختلاف نحلهم دون غيرهم من أهل الأديان الأخرى ، أو توفيره لكل الأديان وسلبه عن أحرار المفكرين ، أو حرمان الملحدين والمارقين منه مع إبقائه للمؤلهة الذين يعترفون بوجود إله هدت إليه طبيعة العقل البشري ، وينكرون الوحي والرسل والكتب المقدسة وما يلحق بها ... إلى آخر هذه الصور التي عرفنا أمرها في هذا الكتاب ، ولكن أحرار الفكر قد واصلوا جهودهم حتى تجاوزوا مراحل هذا التسامح ، إلى إقرار الحرية الدينية في القرن الغابر ... بعد ثلاثة قرون تكدست فيها جثث الشهداء في ميادين الجهاد أكوامًا ..

أثر المذهب العقلي في تقويض الاضطهاد :

وقد عرفنا أن الإصلاح الديني قد مهد لطلب التسامح على كره منه وغير قصد من رجاله ..! وأن الشيع التي جاهرت به وبشرت بإذاعته أدخلها المصلحون في زمرة المارقين ..! وأن ما حدث بعد ذلك من تقويض التعصب وتطهير القلوب من

فكرة الاضطهاد ، مرجع الفضل فيه إلى ظهور المذهب العقلي الذي أقر سلطان العقل ومكن للثقة بمنطقه عند أحرار الفكر في إنجلترا وفرنسا بوجه خاص ، وقد بدت النزعة العقلية في الشك الذي ساور رءوسهم واتجه بهم إل زعزعة الأسس التي قام عليها التعصب واستنند إليها الاضطهاد .

ومما أسلفناه في فصول الكتاب من عرض خاطف لظاهر الاضطهاد الديني وبواعثه نلاحظ :

انتفاء العدالة باجتماع التعصب والسلطة :

إن التعصب إذا أيدته سلطة زمنية حمل أصحابه على جناح العنف البالغ إلى التنكيل بخصومهم في غير رفق ولا رحمة ؛ وإن المتعصب المتزمت لا يدعو إلى التسامح إلا حين يكون موضعًا لاضطهاد ؛ كان هذا أمر الكثيرين من المسيحيين مع الوثنيين في بدء عهدهم ، فلما استقر نفوذهم وتهيأت لهم السلطة نزعوا إلى اضطهاد اليهود والوثنيين وغيرهم من الملحدين ؛ وكذلك كان الحال مع البروتستانت ، مجدوا من شأن التسامح في بدء حياتهم مع أصحاب السلطة من الكاثوليك ، فلما ظفروا بالسلطان نكلوا بخصومهم من الكاثوليك والملحدين شر تنكيل ؛ وكذلك كان الحال عند بعض المسلمين ، وحسبك أن تذكر ما وقع للمعتزلة حين واتتهم السلطة في عهدي المأمون والمعتصم ، لم يقنعوا بالتزام الحجة والمنطق العقلي ، بل حكموا السيف في رقاب مخالفيهم ! .

متى ينجح الاضطهاد ومتى يفشل ؟ :

على أن الغلبة في هذا النزاع كله كانت على الدوام لمن كان أقوى إيمانًا وأشد تعصبًا ؛ ولا عبرة بعد هذا بكثرة العدد أو قلته ، وقلة جريئة متعصبة أقدر على نصرة

المبدأ من كثرة ضعيفة متخاذلة ؛ ولا قيمة لاضطهاد المؤمنين والمتزمتين إذا لم يتكفل هذا الاضطهاد بإبادتهم واستئصال شأفتهم من الوجود ؛ لأن الإيمان إذا كان يزحزح الجبال — فيما يقول الإنجيل — فإنه لا يقوى على زحزحتها إذا اتصلت ذروتها بالسماء ؛ ويكون نجاح الاضطهاد مكفولاً حين يبقي على الإيمان نفسه ويقنع بتغيير مجراه ، بهذا زالت ديانات ومذاهب ، وأخذ غيرها مكانها في قلوب الناس على مر التاريخ . هذه فكرة يشهد بها انتصار الاضطهاد الدامي على الإسلام في أسبانيا وعلى الألبيجيين والجانسنست وغيرها من الشيع الدينية في المسيحية ، وعجز الاضطهاد عن مقاومة المسيحية أو البروتستانتية على ما عرفنا .

وهذا على عكس الاضطهاد إذا كان يهدف إلى « إلغاء » فكرة صحيحة يكشف عنها البحث العلمي أو النظر الفلسفي — كما قلنا في مقدمة الكتاب — لأن مثل هذا الاضطهاد يستطيع أن يستأصل أتباع هذه الفكرة في زمان ومكان ما ، ولكن الفكرة لا تلبث حتى تجد أنصارًا جددًا يستأنفون تأييدها وعلى يدهم يكون انتصارها — طال العهد بتأييدها أو قصر — وقد أبنا على هذا بالتفصيل في كتابنا « قصة النزاع بين الدين والفلسفة » .

التسامح الديني بين المدنية الأوربية الحديثة والقرآن الكريم :

وقد عرفنا ، أن التعصب الديني لبث جاثمًا في صدور الناس في أوربا حتى القرن الثامن عشر ، وأن ألمانيا قد سبقت إلى تأييد هذا المبدأ الكريم ، وأن فريدريك الأكبر حين ولي عرش بروسيا في القرن الثامن عشر ، قد رأى أن من حق كل إنسان أن يصل إلى الجنة بالطريقة التي تروقه ، فكانت هذه وثبة في تاريخ التسامح ، بل كانت حدًا فاصلاً بين عهدين ، واتسعت الهوة بين بروسيا في عهده ، وانجلترا تحت حكم جورج الثالث وفرنسا تحت إمرة لويس الخامس عشر وإيطاليا تحت كابوس البابوات ..

ولكن ، ألم يكن موقفه متماشيا مع ما نزل به القرآن الكريم قبل عصره بنحو أحد عشر قرنًا حين قال : ﴿ **لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي** ﴾ أو حين قال : ﴿ **وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر** ﴾ .

أو حين سوى ــ الإسلام ــ بين الناس فلم يجعل لعربي على عجمي فضلاً إلا بالتقوى ، ووعد بالخير كل من آمن وعمل صالحًا ، سواء أكان من المؤمنين من المسلمين أم غيرهم من اليهود والنصارى والصابئين على ما عرفنا من قبل ؟ .

استمرار التعصب الديني في أوربا الحديثة :

ولكن من قال إن المدنية الغربية قد قضت على التعصب الديني ، وأشاعت روح التسامح بين الناس ..؟ إن التعصب لا يزال يستبد بهوى الناس في أوربا إلى عهدنا الحاضر ! وليس أدل على هذا الروح من كلمة اللورد اللنبي حين استولى باسم الحلفاء ــ إنجلترا وفرنسا وإيطاليا وأمريكا ورومانيا ــ على بيت المقدس في أواخر الحرب الكبرى الماضية ــ عام 1918 ــ فقال عند هيكل سليمان : « اليوم انتهت الحروب الصليبية » ...! وعقب على هذا الاستيلاء الدكتور بيترسون سميث في كتابه عن سيرة المسيح بقوله : « إنه كان حربًا صليبية ثامنة أدركت المسيحية فيها غايتها » .! .

ومنذ بضع سنوات كان « تشرشل » يثير حقد العالم على « النازية » ويستفز الرأي العام في الحرب الأخيرة ، فيدعو في خطبه إلى قتال الألمان إبقاء على « المدنية المسيحية » ..! وكان المستعمرون من أمثال اللورد كرومر يزعمون أن الإنجليز دخلوا مصر في عام 1882 لينشروا الحضارة الإنسانية وفاقًا لتعاليم الدين المسيحي ! .

موقف مصر الحديثة من مقاومة الاضطهاد :

وبهذه الروح تقع الاضطهادات الدينية في أوربا الحاضرة ، وحسنًا فعل وفد مصر في هيئة الأمم المتحدة ــ وعلى رأسه الدكتور هيكل باشا ــ حين اقترح في

أخريات عام 1946 أن تتخذ الجمعية العمومية للهيئة « أسرع التدابير وأفعلها لوضع حد للاضطهادات الدينية في أوربا الوسطى ، لأن التحقيقات التي أجريت في مختلف دول أوربا الوسطى ، قد أثبتت « أن السكان الذين ينتمون إلى أقليات دينية ، لا يزالون ـــ رغم انتصار الديمقراطيات ـــ معرضين للاضطهاد وللتحامل الديني ، وهي حالة تجعل حياتهم في منتهى الصعوبة في بلاد لهم حق واضح في أن يتساووا فيها مع من عداهم من سكان هذه البلاد » .

وإذا كان لنا أن نعلق على الاقتراح المصري بشيء ، فذلك أنا نلاحظ ما لاحظه الأستاذ الجليل الدكتور طه حسين بك في مقال له من قبل ، حين آخذ الوفد المصري على قصر اقتراحه على أوربا الوسطى ، وكان الأحرى أن يشمل الهند وفلسطين وإفريقيا الشمالية وغيرها من البلاد التي تعاني عذاب الاضطهاد الديني في وقتنا الحاضر .. ولو تجاوز الاقتراح المصري نطاقه الضيق إلى التعميم لكان من المحتمل ألا يثير في هيئة الأمم المتحدة الجدل العنيف الذي أثاره ، وألا ينتهي بالأعضاء إلى رفض إدراجه في جدول الأعمال ..! مع تسليمهم بأن الاضطهاد في كل صوره ، يتنافى مع أيسر مبادئ الديمقراطية وأبسط أصول الحضارة وأقل مظاهر الكرامة الإنسانية[1] .

موقف المسيحية من التعصب في أوربا :

على أن من الإنصاف أن نكرر ما قلناه في أكثر من موضع ، من أن المسيحية السمحاء بريئة من تبعات الدم الذي أريق باسمها ، والنفوس التي زهقت من أجلها ، وما أجل المسيح ـــ عليه السلام ـــ حين يقول في خطبته على الجبل : سمعتم أنه قيل عين بعين وسن بسن ، وأما أنا فأقول لكم : لا تقاوموا الشر ، بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضًا ، ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك

---

(1) من أجل هذا عادت جمعية الأمم المتحدة فقررت إقرار الاقتراح بإجماع الآراء .

له الرداء أيضًا .. سمعتم أنه قيل تحب قريبك وتبغض عدوك ، وأما أنا فأقول لكم : أحبوا أعداءكم وباركوا لاعنيكم ، أحسنوا إلى مبغضيكم ، وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم » ... ! .

بهذا الروح السمح جاءت المسيحية ، وسرعان ما تحول في قلوب المتزمتين تعصبًا جارفًا يجتاح كل مبدأ كريم ، وحقدًا مضطربًا يدفع أصحابه إلى ارتكاب كل جرم أثيم ..! .

ومع ما لقي موكب الحرية الدينية من مصاعب ومشقات ، مضى في طريقة قدمًا وتخلف الرجعيون وفاتهم الركب ، فعسكروا حيث كانوا وقد قل عددهم واضمحل نفوذهم وتضاءلت آمالهم ، وباتوا يسرحون الطرف في مواكب الحرية الظافرة فيرتد بصرهم خاسئًا وهو حسير ...

تبعة النصوص المقدسة في الاضطهاد :

وبعد ، فقد قيل ــ على ما أشرنا من قبل ــ إن الذي يعنينا من الأديان ليس نصوصها المدونة في بطون الكتب المقدسة مستقلة عن نفوس المؤمنين بها ، بل يعنينا آثارها السيكولوجية في نفوس معتنقيها ، وإذا كانت النصوص خلوًا من كل دعوة تدفع إلى القمع والتنكيل والاضطهاد ، فإن الإيمان بها يفضي من الناحية السيكولوجية لا محالة إلى نتائج قد لا تتماشى مع حرفية هذه النصوص ! ومن أجل هذا لازمت البدع الأديان مع براءة نصوص هذه الأديان من وصماتها .

في الحق أن إثارة مثل هذا الاعتراض لا تكون متماشية مع منطق العقل إلا حين تهدف إلى إلغاء الإيمان والانصراف عن اعتناق الأديان . وقد قلنا في مقدمة الكتاب إن الإنسان بطبيعته لا يستطيع ــ بالغًا ما بلغ احترامه لشريعة العقل ــ أن يحيا فارغ القلب ، وليس الإلحاد في كل صوره إلا إيمانًا انحرف عن طريقه المرسوم ، ومن هنا

قال الذين أرخوا ظاهرة التدين في كل زمان ومكان : لا يموت في قلب الإنسان إله حتى يحتل مكانه إله آخر ! ناهيك بما يترتب على الإيمان من وجوه النفع الأدبي والمادي على السواء . وفي مقدمة الكتاب غنية عن التفصيل .

إذا كان هذا هو شأن الإيمان من حيث إنه ضرورة لا مفر منها ، ومن حيث إنه نافع للأفراد والجماعات ــ أدبيًا وماديًا ــ وجب إغفال كل اعتراض يكون من شأنه الحط من جلال الإيمان . أما إلقاء تبعة الاضطهاد على عاتق الأديان مع خلو نصوصها من أية إشارة تحملها وزر هذا الإثم ، فإن في هذا ــ كما قلنا في نهاية الفصل السالف ــ تجنيًا صارخًا واضح البطلان ، لأنه يكاد يلغي الفروق التي تفصل بين البراءة والإجرام ! .

أهم مصادر الكتاب[1]

أ ــ مصادر عامة :

W.E.H.Lecky . Hist, of the Rise & influence of the Spirit of Rationalism in Europe 2 Vols. 1865.

ولا سيما الفصل الأخير في الجزء الأول والفصل الأول في الجزء الثاني .

J.B.Bury. A History of Freedom of Thought 1920 .

له ترجمة للأستاذ محمد عبد العزيز إسحاق تحت عنوان « حرية الفكر » ١٩٤٦ .

E.S.P.H.ynes. Religious Persecution (1904) .

Van Mildert. Historical View of the Rise & Progress of infidelity 1808 .

A.D.White, Hist, of the Warfare of Science with Theology in Christendom 2 vols .

ترجم شطرًا كبيرًا من الجزء الأول منه الأستاذ الجليل إسماعيل مظهر تحت عنوان : « بين الدين والعلم » .

---

(1) بعض المصادر التي ذكرناها في هوامش الكتاب لم يرد ذكرها هنا . وبعض المصادر المشار إليها هنا ذكرناه لمن شاء التوسع في دراسة موضوع الكتاب وإن لم نتمكن نحن من قراءته .

J.M.Robertson, A.Short Hist. of Free - Thought, 2 Vols,

M,Barni. Les martyrs de la Libre Pensée .

Encyclopedia of Religion & Ethics.

في المواد الآتية بوجه خاص (وقد اشترك في كتابة بعضها عدة علماء) :

Toleration, Persecution, Inquisition, Saints & Martyrs,

Anti Semetism, & Protestantism.

G.Lebon (1) Lois psychologiques de l'evolution des peuples 1894 .

وقد ترجمه إلى العربية أحمد فتحي زغلول باشا تحت عنوان « سر تطور الأمم » ١٩٢١ .

2) La revolution Francaise et la psychologie des revolutions .

وقد ترجمه الأستاذ محمد عادل زعيتر تحت عنوان « الثورة الفرنسية وروح الثورات » .

M.Creighton Persecution and Toleration. London 1895.

الكتاب المقدس (ولا سيما إنجيل متى في العهد الجديد)

توفيق الطويل : قصة النزاع بين الدين والفلسفة ١٩٤٧ (والكثير مما ورد فيه من مصادر) .

ب — عن المسيحية (الكاثوليكية والبروتستانتية) عدا ما أسلفنا ذكره في المصادر العامة :

Rohrbakers Hist. de l'Eglise Catholique.

Milman Hist. of Christianity .

Lindsay A Hist. of Reformation.

Merle. The great Reformation of the 16th, Century in Germany 5 vols.

Henri. Life of Calvin .

B.Aube. Hist. des persécutions de l'église jusqu'à la fin dẹs Antonius (Paris 1875) .

H.M.Gwatkin. Garly Christian History 2 vols. London 1879.

Montbeliard, Les idées de Luther sur la répréssion l'hérésie, 1901 .

جـ ـ عن محكمة التفتيش :

H.Lea, 1. A Hist, of the inquisition of the Middle Ages 3 vols .

2. A Hist. of the inquisition in Spain, 4 Vols.

Coulton, Inquisition and liberty .

D.J.A. Licie. té Hist. Critique de l'inquisition d'Espagne.

Maycock, The inquisition .

Fereal. Mystéres de l'inquisition.

H.Ch.lcg, Hist, de l'inquisition au moyen age (Eng translation by S, Reinach 1900) .

د ـ عن الإسـلام :

القرآن الكريم :

ـ تفسير الفخر الرازي (مفاتيح الغيب) .

ـ المنار للسيد محمد رشيد رضا .

ـ الطبري (جامع البيان في تفسير القرآن) .

محمد عبده : الإسلام والنصرانية ، الطبعة الأولى .

رسالة التوحيد الطبعة السادسة .

فرح أنطون : ابن رشد وفلسفته ١٩٠٣ .

محمد حسين هيكل باشا : حياة محمد (الطبعة الثانية) .
الفاروق عمر بجزئيه ، الطبعة الأولى .

أحمـــد أميـــن بـــك : فجر الإسلام ، الطبعة الثالثة .
ضحى الإسلام ج 1 الطبعة الثالثة (1938) .

هـ ـ عن التسامح الديني :

Ameer Aly. The Spirit of Islam 1923.

Kamal Mohd. Ben Mostafa La Tolérance religieuse dans l'Islamisme, traduction, Bazard, Alger 1902 .

Encyc. of Religion & Ethics art. Persecution & art. Toleration (by A. T. W Arnold)

F.Ruffini. Religious Liberty (Eng. trans. by j. Parker Hayes, with a preface by J.B.Bury 1912)

P.Schaff. The progress of Religious Freedom as shown in the Hist. of Toleration Acts New York, 1889.

Matagrins. Hist. de la Tolérancc Religieuse : Evolution d'un principle social, Paris, 1905,

Maillet. L'Eglise et la répréssion sanglante de l'hérésie, Liège Paris, 1909 .

Vermeersche, S, J La Tolérance, Louvin 1912.

Dubois,	Bayle et la Tolérance, Paris 1902.
Wallace,	St. John. The Contest for Liberty of Conscience in England, Chicago, 1900.
Russel Smith.	The theory of Religious Liberty in the Reigns of Charles II - James II, Cambridge, 1911.
Seaton.	The Theory of Toleration under the Later Stuarts, Cambridge, 1921.
Bonet - Maury.	Histoire de la Liberté de Conscience en France depuis L'Edit de Nantes jusqu'en 1870, 2me ed, Paris 1909.
Robert,	Voltaire et L'intolérance religieuse, Lausanne, 1904,
Thadeus de Trantsmandorff.	La Tolérance écclesiastique et civile .
J, Godwin,	Plea for Liberty of Conscience 1914.

كشـــــاف

بأهـم الأعــلام والمصطلحـات

فهـــــرس الموضوعـات

دكتور : إبراهيم دسوقي أباظة

الخطايا العشر

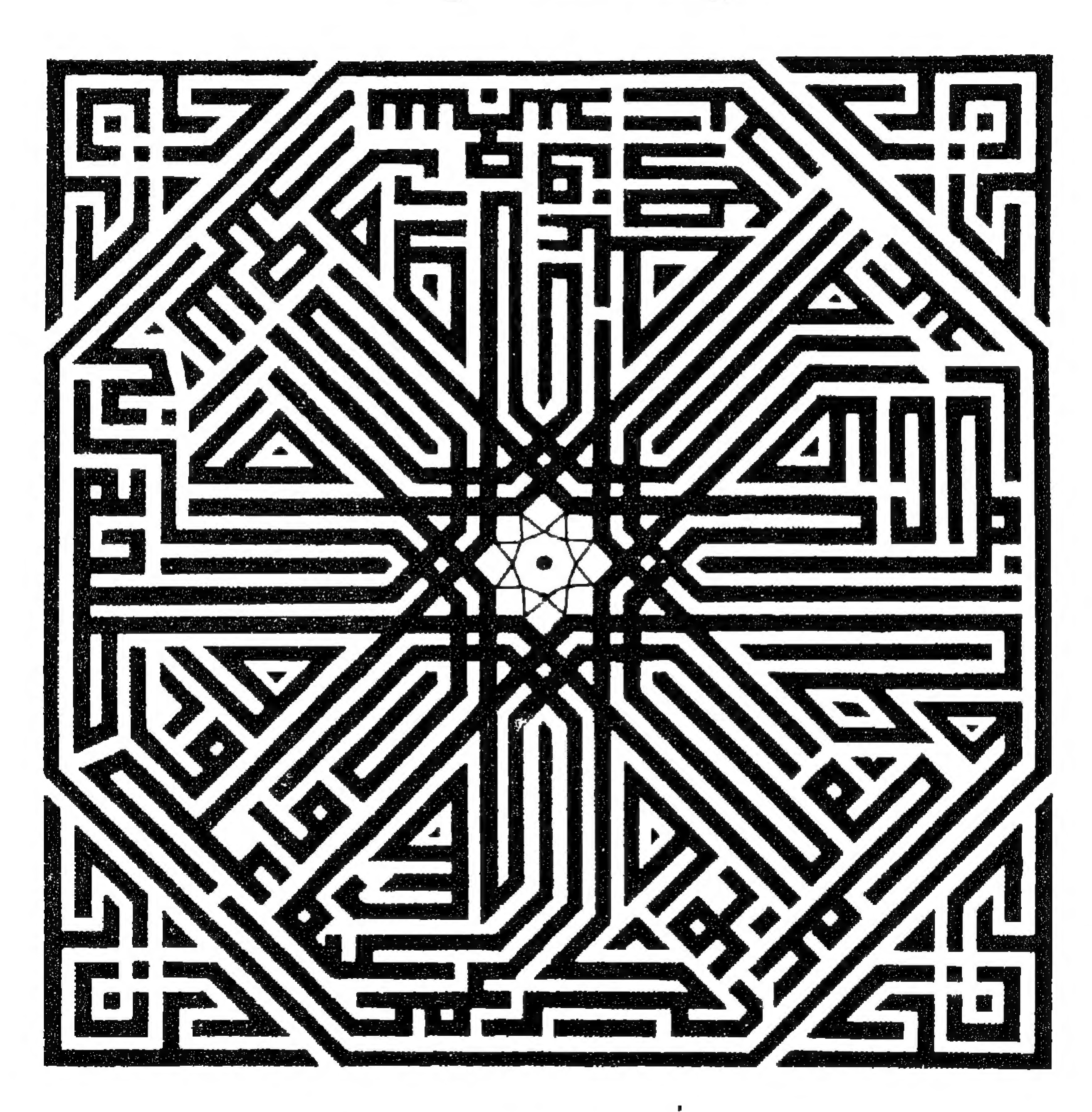


من عبد الناصر إلى السادات

الزهراء للإعلام العربي

العَشرة المُبَشَّرون بالجَنَّة

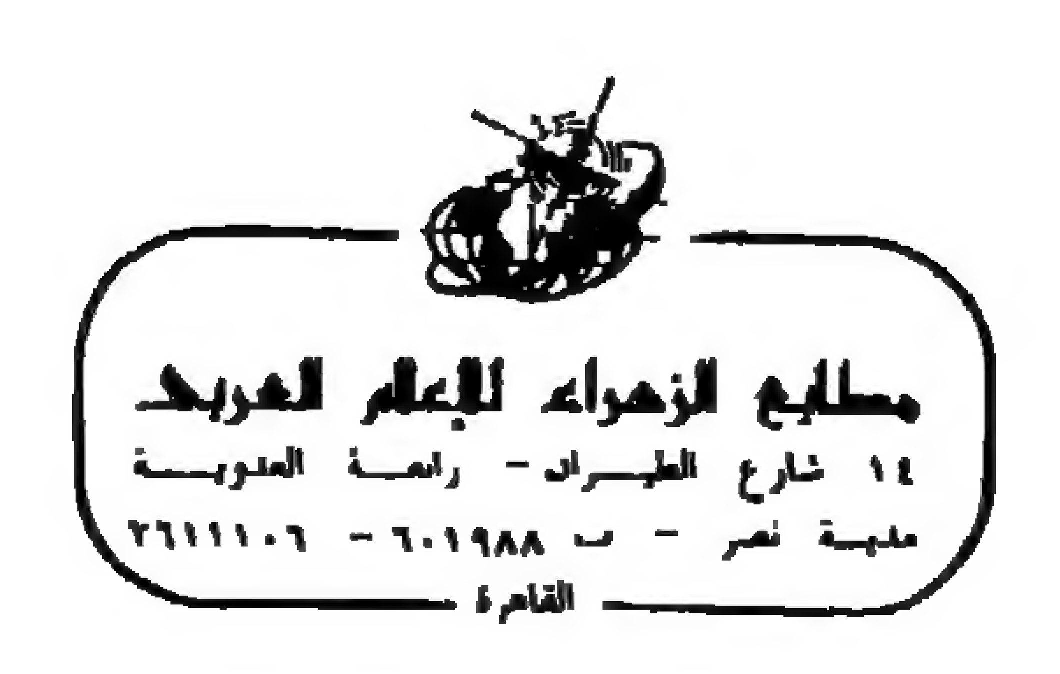
من طبقـات ابن سعـد



الزهراء للإعلام العربي

رقم الإيداع : ٩٧٥٣ / ١٩٩١

الترقيم الدولي : ١ - ٠٦٦ - ٢٥٧ - ٩٧٧



قصة الاضطهاد الديني في المسيحية والإسلام

هـذا الكتاب أحد كتب فقيد الفكر الفلسفي الدكتور توفيق الطويل أحد عمد تدريس الفلسفة في مصر وعضو مجمع اللغة العربية .

ويعالج فيه المؤلف قصة الاضطهاد الديني في المسيحية والإسلام معرجا على جذور هذا الاضطهاد وموضحا أن الاضطهاد هو ظاهرة خاصة بممارسي الأديان وليس ذات الأديان من حيث هي نصوص مقدسة .

ويتمثل في الكتاب أسلوب الدكتور الطويل من حيث عمق النظرة وبراعة العرض وإشراق الأسلوب وتسلسل الأفكار .

الناشـر

الزهراء للإعلام العربي